أنيس صايغ والمؤسسة الفلسطينية
السياسات، الممارسات، الإنتاج

سميح شبيب

(محرراً)

بيان نويهض الحوت

حسين أبو النمل

سميح شبيب

عبد الحفيظ محارب

فيحاء عبد الهادي

فيصل درّاج

مواطن؛ المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

رام الله – فلسطين

٢٠١٠

Anis Sayigh
Policies, Practices and Achievements

Sameeh Shbeeb

© Copyright: MUWATIN - The Palestinian
Institute for the Study of Democracy
P.O.Box: 1845 Ramallah, Palestine

2010

ISBN 978-9950-312-55-5

This book is published as part of an agreement
of cooperation with the Chr. Michelsen Institute - Norway

جميع الحقوق محفوظة
مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية
ص.ب ١٨٤٥، رام الله، فلسطين
هاتف: ١١٠٨ ٢٩٥ ٢ ٠٠٩٧٠، فاكس: ٠٢٨٥ ٢٩٦ ٢ ٠٠٩٧٠
www.muwatin.org

٢٠١٠

يصدر هذا الكتاب ضمن اتفاقية تعاون مع مؤسسة كريس مكلسن – النرويج

تصميم وتنفيذ مؤسسة **ناديـــا** للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع
رام الله – هاتف ٠٩١٩ ٢٩٦ – ٠٢

ما يرد في هذا الكتاب من آراء وأفكار يعبر عن وجهة نظر المؤلف ولا يعكس
بالضرورة موقف مواطن ـ المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

المحتـويات

مقدمـة ٥
سميح شبيب

أنيس صايغ: المعلّم والإنسان ٧
بيان نويهض الحوت

أنيس صايغ: استثنائية العادي؛ عبقرية الطبيعي ١٩
حسين ابو النمل

المصير المأساوي لمركز الأبحاث الفلسطيني ٤١
سميح شبيب

الدكتور أنيس صايغ حالة جميلة في الثّقافة الفلسطينيّة ٥١
عبد الحفيظ محارب

مذكرات أنيس صايغ: تكامل المثقف الوطني في زمن ممزّق ٥٩
فيصل درّاج

د. أنيس صايغ: بناء المؤسسات وإنتاج المعرفة ٧١
فيحاء عبد الهادي

مقدمة

عقدت دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية في جامعة بيرزيت، ندوة فكرية بعنوان: "د. أنيس صايغ والمؤسسة الفلسطينية: السياسات، الممارسات، الإنتاج"، وذلك بتاريخ ٢٠١٠/٢/٤، استهل الندوة د. عبد الرحيم الشيخ، رئيس الدائرة، بكلمة افتتاحية، وتحدث فيها كل من: د. سميح شبيب، وعبد الحفيظ محارب، و د. فيحاء عبد الهادي.

وتناولت مداخلة د. سميح شبيب، ما آلت إليه أمور مركز الأبحاث الفلسطيني، حتى توقفه عن العمل العام ١٩٩٣، بينما تحدث عبد الحفيظ محارب، عن مرحلة التأسيس ودور د. أنيس صايغ في ذلك، وتناولت د. فيحاء عبد الهادي، الدور المعرفي للدكتور أنيس ونشر المعرفة حول دوره الفكري.

بادر د. جورج جقمان، باقتراح نبيل، بتوسيع دائرة هذه الندوة، وذلك عبر مشاركة آخرين، كان لهم دورهم في مركز الأبحاث، ونشر تلك المداخلات في كتاب تكريمي لروح المرحوم د. أنيس صايغ. وتم اختيار ثلاثة مشاركين وهم: د. بيان نويهض الحوت، ود. حسين أبو النمل، ود. فيصل درّاج، وقد استجابوا جميعاً لمبادرتنا تلك، وقاموا بتقديم مداخلات قيمة، حيث تحدث د. حسين أبو النمل عن مرحلة التأسيس ودور د. أنيس فيها، بينما تناول د. فيصل درّاج شخصية د. أنيس المعرفية، والشخصية والوطنية، وقامت د. بيان نويهض الحوت بالتحدث عن الدور المميز للدكتور أنيس عبر أدوار حياته الثقافية.

الجدير ذكره في هذا السياق، أن جل من ساهموا في هذا الكتاب هم من العاملين الأساسيين في مركز الأبحاث، وبخاصة في المرحلة التي تولى

فيها د. أنيس صايغ إدارة مركز الأبحاث، وممن كان لهم إسهاماتهم واطّلاعهم على سير الأمور داخل المركز، فلهم جميعاً الشكر الجزيل على إسهاماتهم.

نرجو أن يكون هذا الكتاب، قد أسهم في تكريم وإنصاف دور د. أنيس صايغ، ونشر المعرفة حول دوره الفكري والمعرفي.

محرر الكتاب
سميح شبيب

أنيس صايغ: المعلّم والإنسان

بيان نويهض الحوت

أنيس صايغ: المعلّم والإنسان

بيان نويهض الحوت*

الدكتور أنيس صايغ، المفكر العربي الملتزم، والأستاذ الجامعي، والبحاثة المؤرخ، أنا لا أجد في مستهل الكتابة عنه أفضل مما قاله هو عن نفسه، في ذلك الكتيب الصغير، والبالغ الأهمية، عن الإرهاب الصهيوني:

> "أنا رجل أمتهن البحث والكتابة. لم أحمل في يدي مسدساً ولا بندقية ولا قنبلة ولا سيفاً ولا خنجراً ولا حربة ... هذا المسالم وضعه الإسرائيليون على قائمة الإرهابيين، فتعقبه إرهابيوهم، وحاولوا الاعتداء عليه مرتين، بالمتفجرات والصواريخ، ونجحوا في الثالثة، بطرد ملغوم، أخذوا بصراً وسمعاً وتركوا تشويهاً. وكانت جريمته أنه درّس وكتب ونشر وأسهم في تربية جيل على الدرس والكتابة والنشر في نقد الصهيونية فكرة وممارسة، وفضحها ومعارضتها ومقاومتها، ضمن حدود البحث العلمي والموضوعي.
>
> جريمتي أنني عشت في بريطانيا خمس سنوات. درست خلالها الشؤون العربية وتتلمذت على شعبها في أصول الحرية والحق والعدالة. وعدت إلى بلدي أمارس ما اختبرت واختزنت. وإذا بي أذهب ضحية ممارسة ما تعلمته هناك في كامبردج" (ملف الإرهاب الصهيوني، ١٦/٤/١٩٩٦: ٢٨).

هذا المؤرخ الكبير ما سقط القلم من يده طوال نصف قرن من الزمان، إلا في مرحلة قصيرة في الثمانينيات، حين كان الصمت أبلغ معنى من الكلام، وهو يصف تلك المرحلة الصامتة الصاخبة بقوله:

---

* كاتبة وباحثة مقيمة في بيروت

"كان الكلام بالنسبة إليّ قبل ذلك اليوم (يقصد ١٣ أيلول ١٩٩٣) إضاعة للجهد والوقت والطاقة. وكان الصمت جرأة. أما بعد الثالث عشر فقد أصبح الكلام واجباً، وأصبح الصمت هروباً، وأكاد أقول جبناً" (١٣ أيلول، ١٩٩٤: ٩).

في تلك المرحلة الصامتة -كما سمّاها- لم يكن أنيس صايغ صامتاً حقاً، كان يشرف على أهم مشروع تاريخي عن فلسطين، ألا وهو القسم الثاني من الموسوعة الفلسطينية، وقد افتتح العقد الأخير من القرن الماضي بإصداره في ستة مجلدات، ثم عاد بعد العام ١٩٩٣ إلى الكتابة بغزارة العالم، وروح المؤمن.

أنا أدرك تماماً أن مثل هذا الرجل المعطاء، فكراً، وعقيدة، ونتاجاً، وحضوراً، تصعب الإحاطة بمكانته بين الكتّاب العرب المعاصرين في صفحات معدودة، غير أنه من أجل التوصل إلى شيء من حقيقة هذا المعلم والإنسان، نتوقف -بداية- عند بعض محطاته الفكرية، ولن أكشف سراً حين أقول ما يجدر بي أن أختتم به، وهو أن الجرأة والصدق والالتزام المطلق بقول الحقيقة، هي المبادئ التي تتجلى في كتبه التي تربو على العشرين، وفي دراساته ومقالاته وحواراته التي تحصى بالمئات.

من أبرز ميّزات أنيس صايغ الفكرية أنه لم يلتصق بموضوع واحد، أو بمرحلة زمنية واحدة، فهو قد كتب عن فلسطين، وقضيتها، وتاريخها، وجغرافيتها، وكتب عن الصراع العربي -الإسرائيلي، وعن مفهوم الصهيونية وتطورها، وكذلك كتب عن قضايا العرب التي تحتاج كل منها إلى تخصص عمر بأكمله، عن الثورة العربية الكبرى، وعن لبنان، وعن مصر، وعن العروبة، كتب عن كل قضية كانت في يومها في صدارة الهموم العربية.

لبنان الطائفي، كتابه منذ خمسين عاماً، من أهم الكتب التي عالجت السرطان المعروف بالطائفية في لبنان، وليست وقفتنا هنا لنؤكد على إحاطة المؤلف التاريخية الشاملة بهذا الموضوع، ولكن لنتوقف عند محطة قلما تلفت إليها سواه. فالميثاق اللبناني الشهير، غير المكتوب، الذي لاقى من التمجيد والهالات أكثر مما ناله من نقد موضوعي، والذي رأت فيه الأغلبية جامعاً لمختلف الفئات اللبنانية، والذي لم يكن بحكم الأمر الواقع أكثر من مقايضة سلبية، كان أنيس صايغ هو الذي ركز على جوهره، حين قال:

"لقد أخفى هذا الميثاق المسمى بالوطني حقيقة بشعة، وهي أن استقلال لبنان ووضعه الدولي وحدوده، وضع مرة أخرى موضع المساومة الطائفية، وموضع المصالح الطائفية، الجزئية. وكرس علاقات الطوائف ضمن خطوط مصلحية وحزبية، بدل أن يعتبر بالخطوط الوطنية الجامعة. لذلك، لم يكن الميثاق، الديمقراطي ظاهره، إلا وسيلة أخرى من الوسائل التي استثمرها الطائفيون لحجب طائفيتهم، خجلاً من الرأي العام الذي بدأ يحس بإثم الطائفية" (لبنان الطائفي، ١٩٥٥: ١٥٨).

وكتب أنيس صايغ الكثير عن القومية العربية على خطين متوازيين، كتب بعمق المؤرخ المدقق، ومشاعر المواطن المسؤول، وقد تجلى ذلك في كتابه **الفكرة العربية في مصر (١٩٥٩)**، ثم في كتابه **مفهوم الزعامة العربية: من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر (١٩٦٥)**، فكان أولٍ من انتقد مسيرة الحركة القومية العربية ما بين الحربين العالميتين، واصفاً إياها بالمحافِظة واليمينية، وقائلاً إنها قد:

"حصرت جهدها في الحصول على الاستقلال السياسي دون أن تعنى بتطور المجتمع من الداخل تطويراً يحقق المساواة والعدالة الاجتماعيتين. وكانت النتيجة ... أن عهود الاستقلال لم تلتفت إلى المواطن كقيمة نهائية للمجتمع والكفاح والاستقلال، بل اعتبرته مجرد أداة، حتى فقد ثقته منها، وأخذ يعارضها معارضته لعهود الاحتلال الأجنبي من قبل ..." (**مفهوم الزعامة العربية** ...، ١٩٦٥: ٣٥-٣٦).

وأما عن عبد الناصر، فكان هو من قال عنه: "هو السياسي العربي الوحيد في تاريخنا الحديث الذي ينسب إليه عصر بكامله، ويربط به العرب بأسرهم" (**مفهوم الزعامة العربية**...، ١٩٦٥: ١٩٢). وكان هو من أشار إلى سر عشق الجماهير لزعيمها، بقوله:

"عبد الناصر أول زعيم عربي خاطب الشعب بلغته، مادة وأسلوباً وروحاً. سمع الناس في كلامه ما كان في نطاق إدراكهم وأمانيهم. ورأوا في أعماله ما أثبت لهم صحة كلامه. لقد استمعوا من قبل إلى خطباء بارعين ... ولكنهم اختبروا في جمال عبد الناصر أمراً جديداً: وجدوا وراء هذه المواهب والصفات قلباً واسعاً يشمل الأمة، وعقلاً واسعاً يدبر أمور الأمة تدبيراً حسناً ... ورأوا أخلاقه وصفاته صورة عن المثال الذي يتصورون للرجل العربي

الكامل ... ولكن رأسماله الحقيقي الأصلي في تكوين الزعامة لم يكن في هذه الصفات. بل كان في مشاركته الشعب. العلاقة العضوية بينه وبين الشعب هي القوة الرئيسية في يده ..." (**مفهوم الزعامة العربية**...، ١٩٦٥: ١٦٤-١٦٥).

أما كتابه الأكثر شهرة من حيث الجدل وانقسام الرأي من حوله: **الهاشميون والثورة العربية الكبرى** (١٩٦٦)، فهو قد حدد موقفه العلمي في مقدمته بقوله:

"وربما تكون بعض العلاقات بين الهاشميين والقومية العربية جارحة ... بحيث يفضل البعض إخفاءها ... غير أن الكشف عن هذه الحقائق لا يراد منه غير خدمة الحقيقة، لا الاتهام ولا التملق ... ولا الحكم بتبرئة ولا بتجريم. ليس للمؤلف من رغبة غير تحديد العلاقات بين حركة قومية حملت أماني ملايين البشر، وبين أسرة شاءت الظروف أن تتسلم مسؤولية هذه الملايين".

وأما عن العروبة، في الكتاب نفسه، فقد عرفها بقوله: "العروبة أكثر من القول بها والتغني بأمجاد السلف، والتلهي في النهار بأحلام الليل. إنها شعور قومي يعي المسؤوليات ويمارسها". وأما عن الحد الأدنى الذي يجمع عليه أغلب المدارس والمفاهيم والاتجاهات والمذاهب، فهو برأيه:

"الإيمان بأن العرب أمة واحدة، وأن من حقهم إقامة دولة موحدة ومستقلة تنطلق منها إمكانات الأمة، وأن من واجب الفرد العربي العمل في سبيل تحقيق هذا الهدف المزدوج، ولو كان ذلك العمل يتعارض مع ارتباطاته السابقة، الطائفية أو العنصرية أو الإقليمية أو الطبقية" (**الهاشميون والثورة العربية الكبرى**، ١٩٦٦: ٢٧٦).

ولعل الجيل العربي الجديد الذي فاته اليوم أن يقرأ كتب الخمسينيات والستينيات، يصبح أكثر قدرة على إدراك مدى التزام أنيس صايغ بالسعي نحو الحقيقة، عندما نهمس في آذان هذا الجيل، بأن مؤرخنا الذي أنصف العروبة، قد انتمى في شبابه إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، لكنه لم يكن متحزباً حقيقة إلا إلى التزامه الأكاديمي والتزامه بالحقيقة. وهكذا، نكون قد تعرفنا على الميزة الأولى لهذا المعلم والإنسان.

موضوع آخر من خارج الإطار الأكاديمي، موضوع شخصي وعاطفي، عنوانه في الإهداء الذي توج به كتابه **١٣ أيلول**:

"إلى طبرية
جنة الله على الأرض، فلسطينية عربية
ولعنة الله على الذين مسخوها يهودية إسرائيلية".

أما في مقدمته للكتاب نفسه، فقد استبق أحكام الناس عليه، قائلاً إنهم سوف يقولون:

"متشائم. متطرف. متسرع..."، لكنه سرعان ما يتوقف عند أسباب ذلك:

"ذنبي هنا (وما أكثر ذنوبي) أنني أحب طبرية، ولا أجد لها بديلاً، ولا أرضى بغيرها مُقاماً. ولتذهب كل فنون الواقعية والبرجماتية والدبلوماسية والمرحلية والمرونة والشطارة إلى الجحيم، هي وأصحابها ومنظروها ودعاتها وممارسوها ومنفذوها، إذا لم يعيدوا لي طبرية.

هل سبحت يوماً في بحيرة طبرية، واحتضنتك مياهها الدافئة في يوم بارد، ومياهها الباردة في يوم حار؟ إذا كنت قد فعلت ذلك ستفهم كلامي ومشاعري، وتعذرني" (**١٣ أيلول**، ١٩٩٤: ١٢).

وهذه هي الميزة الثانية لهذا المعلم والإنسان. هو الفلسطيني بامتياز. وهو الصادق بلا حدود. هو لا يتوارى وراء برودة الأكاديميين وهو يتحدث عن حبه الكبير، عن طبرية.

أما عن الصهيونية، فقد كتب أنيس صايغ الكثير، لكننا نقتطف القليل منه، لكونه يغني عن الكثير، فهو القائل:

"لقد تعامل الصهيونيون مع الفكر العربي تعاملهم مع السلاح العربي ... رأوا في الكتاب بندقية. وفي المدرسة مستودع أسلحة. وفي الوثيقة إدانة. وفي الحقيقة المعلنة قنبلة موقوتة" (**ملف الإرهاب الصهيوني**، ١٦/٤/١٩٩٦: ٢٩).

وهو القائل:

"إسرائيل العظمى وإسرائيل الكبرى صفحتا ورقة واحدة مكتوب عليها، بالعبرية، اسمُ إسرائيل. وإذا كان الصهيونيون هم الذين أشادوا إسرائيلهم الكبرى، فإننا نحن، عرب السنوات الأخيرة من هذا القرن، الذين بنينا لهم إسرائيلهم العظمى" (**الوصايا العشر والحركة الصهيونية**، ١٩٩٨: ٥٩).

أنيس صايغ من الأوائل الذين تعمقوا في فهم الصهيونية، وفي كشف أضاليلها. وهذه هي الميزة الثالثة لهذا المعلم والإنسان.

وننتقل من الخاص إلى العام.

إن كل من يعرف أنيس صايغ يعرف أن همه الأول كان العمل المتواصل على نشر كل كتاب وكل مقال جدير بالنشر. طوال مراحل حياته كان هذا دأبه. درّس في جامعة كامبردج في بريطانيا، وفي الجامعة الأميركية في بيروت، وعمل على إنشاء أربع دوريات فصلية وشهرية تعتبر من أبرز الدوريات العربية، وأشرف على عشرات الرسائل الجامعية. وأما خلال عهده مديراً عاماً لمركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية، ما بين منتصف الستينيات ومنتصف السبعينيات، فقد أصدر المركز ما يفوق على الأربعمائة دراسة، ولكن تبقى النقطة الأكثر أهمية من هذا كله، ألا وهي التواصل في عمله مهما تنقل بين العواصم، فهو قد تنقل بحكم الضرورة ما بين لندن وبيروت وتونس والقاهرة، حتى استقر نهائياً في بيروت.

وأما الكم الهائل من النتاج الذي أشرف عليه، في هذه الدورية أو تلك، في هذا المركز أو تلك الموسوعة، فينبئنا بأن هذا المثقف الملتزم الذي عاش حياته منسجماً مع نفسه وفكره ومبادئه، ما قصّر يوماً في تحمل أعباء مسؤولياته، فهو ما كان همه فقط أن يقال: لقد أبدع أنيس صايغ في هذا البحث. كان همه أن تصدر الأبحاث الجيدة، سواء أكان هو المؤلف، أم كان سواه. وهكذا تتضح لنا الميزة الرابعة لهذا المعلم والإنسان.

وأما الميزة الخامسة فتعالوا نتعرف عليها من الذين عملوا معه.

في المدة الأخيرة من عهده مديراً عاماً لمركز الأبحاث، تألب الخصوم من حوله طمعاً بمنصبه، أو بمطامع أخرى لا داعي لذكرها. ولا أنسى حديثي مع أحد الباحثين العاملين في المركز، حين قال لي مرة، ونحن في المكتبة، بصوت خافت: "هذا الذي ترينه خارجاً واحد من الخصوم". دهشت لسماع ذلك، وبخاصة أنني كنت قد قرأت لذاك الذي أشار إليه، دراسة قيمة في العدد الأخير من مجلة المركز –**شؤون فلسطينية**، وما أن أعربت عن سبب دهشتي، حتى رد عليّ صديقي مندهشاً بدوره من جهلي، ولكن بصوت خافت أيضاً:

> "وما علاقة النشر بالعلاقات الخاصة؟ هذا أنيس صايغ. وهم يعرفونه جيداً. ما تخلى مرة عن نشر مقال يستحق النشر، حتى لو كان لخصومه. ولذلك هم يتمادون".

وأخيراً، يحق لي أن أدلي بشهادتي عن أستاذي الكبير الذي عرفته عن كثب مشرفاً وموجهاً ومرجعاً، طوال سنوات إعدادي لرسالة الدكتوراه. وليس مرادي أن أضيف إلى ميزاته المتعددة، فهو ليس بحاجة إلى شهادة مني، لكنني أنا بحاجة لأشهد وأتكلم، فهذا النوع من الأساتذة يندر وجودهم، وكم أكرمتني الحياة بأنه كان أستاذي المشرف. أنا لا أذكر أنني طلبت مقابلته مرة، إلا وقابلني في اليوم التالي، مهما كانت مشاغله، وأنا ما نسيت مرة أن أدون كل ملاحظاته. ولعل أكثر ما كان يدهشني حماسه الفائق، وسعادة الأطفال على وجهه وهو يملي علي من ذاكرته مصادر نادرة، ثم يقول مستدركاً مع ابتسامة رجاء:

"يا ليتك تتوصلين إليها، أو إلى بعض منها".

غير أنه كانت هناك مشكلتان جابهتهما في السنة الأولى من إعدادي للرسالة:

المشكلة الأولى أنني لا أتفق مع أستاذي في كل ما كتب. ومن الأمثلة على ذلك، مفاهيمنا المختلفة عن الثورة العربية الكبرى، وقد كان علي أن أتناولها في الفصل الأول. حسبت ألف حساب قبل أن يرد لي مخطوطة هذا الفصل. لكنه ردها وهو يبتسم كعادته، دون أن يشير لحظة إلى

امتعاض ما لكوني أخالفه بالرأي هنا أو هناك. حمداً لك يا الله، لقد حلت المشكلة الأولى.

وأما المشكلة الثانية فكنت أتصور أنها أكثر صعوبة. فأنا بحكم موضوع رسالتي عن القيادات السياسية في عهد الانتداب، كنت أقابل الكثيرين من رجالات ذلك العهد في فلسطين، ومن كتّابه ومؤرخيه، معظمهم حمّلني تحياته لأستاذي، لكن بعضهم أسرّ إلي بأن العلاقات ليست على ما يرام بينهما –أي بين المتحدث وأستاذي– لذلك فهو يرجوني –ولمصلحتي– ألا أذكر أن هذا الاقتراح من فلان، مثلاً. وذات مرة، ذكرت اسم "فلان" أمامه من غير أن أقصد، فقط لأجد أستاذي يبتسم قائلاً: "وكيف حاله؟ بلغيه تحياتي، ولا شك أن رأيه هذا قيم".

أما اليوم وقد مر ربع قرن من الزمان على هذه التجربة، أقول إنني تعلمت من أستاذي الكبير خلال السنوات بل العقود التي تلتها، ما لم أتعلمه خلال إعدادي برسالة الدكتوراه. دائماً كان لي الملجأ. ودائماً كانت آراؤه عادلة ومنصفة حتى بالنسبة إلى من لم يبادلوه الخير والمحبة من جمهور الأكاديميين. ذاك هو أنيس صايغ، المعلم والإنسان.

لائحة المراجع الواردة عناوينها في البحث وفقاً لتاريخ الصدور:

- أنيس صايغ. **لبنان الطائفي**
(بيروت: دار الصراع الفكري، الطبعة الأولى،١٩٥٥).

- أنيس صايغ. **الفكرة العربية في مصر**
(بيروت: مطبعة هيكل الغريب، ١٩٥٩).

- أنيس صايغ. **من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر**
(بيروت: منشورات جريدة المحرر والمكتبة العصرية، ١٩٦٥).

- أنيس صايغ. **الهاشميون والثورة العربية الكبرى**
(بيروت: دار الطليعة، الطبعة الأولى، ١٩٦٦).

- أنيس صايغ. **١٣ أيلول**
(بيروت: مكتبة بيسان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤).

- أنيس صايغ. **ملف الإرهاب الصهيوني**
(بيروت: ١٦/٤/١٩٩٦).

- أنيس صايغ. **الوصايا العشر والحركة الصهيونية**
(بيروت: مركز الإسراء للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، ١٩٩٨).

أنيس صايغ: استثنائية العادي؛ عبقرية الطبيعي

حسين أبو النمل

أنيس صايغ: استثنائية العادي؛ عبقرية الطبيعي

حسين أبو النمل*

تعودنا، نحن تلامذة أنيس صايغ، أن يُوجِّهَنا لمواضيع أو نقترحها عليه، فَيُحَسِّنُها، حَذفاً أو إضافة، وهو من امتلك موهبة تنسيب المواضيع والكُتَّاب، كذوقه الرفيع في تنسيق ملابسه مُحَقِقاً أناقة عالية وهادئة في الكلمة والهندام. ما لم نُرِدْه أن يصبح هو نفسه، مَوضِع الكتابة بصيغة الماضي، بما يعنيه من أن حكاية أخرى، ثمينة وجميلة وحميمة، قد طويت. أستعيد هنا قول أحد تلامذة أنيس صايغ، "الرجل الذي صار أبي منذ تعرفت إليه قبل ثلاثين سَنة"، فكم بالحري مع تلميذه لأربعين سنة تقريباً. لقد "ولدنا على يديه من جديد"، نحن من بدأنا معه رحلة البحث العلمي من الصِفر المنهجي.

عند إعدادي هذه المقالة، كانت المرة الأولى، ربما، التي أخرق بها قاعدة يقدسها صايغ وهي تسليم المطلوب في الوقت المحدد، لأني ضيعت وقتاً وأنا أدور حول الموضوع، مُتذرعاً لنفسي بتعدد المداخل التي يمكن الكتابة انطلاقاً منها عن الرجل. كنتَ أهرب من المهمة لعجزي عن الكتابة بصيغة الماضي عن عزيز حاضر في الذهن والضمير، وأمارس هرطقة إنكار الوقائع التي لا أحبها. خرجت من ترددي حين تذكرت مأثوره: "لا يستقيم البحث العلمي ومنهج إنكار الوقائع مهما كانت مُرة".

أنيس صايغ في باقة من كلمات عارفيه: وُصِفَ الرجل بأنه كان "باحثاً ومؤرخاً أولاً وقبل كل شيء"، "باحثاً من الطِراز الرفيع". إنه "قسيس

---

* باحث مقيم في بيروت

الثقافة الفلسطينية [...] حازماً ومُترهباً لعمله [...] نموذجاً للتقشف والالتزام ونكران الذات". كان "رمزاً للاستقامة والنقاء"، و"حالة جميلة في الثقافة الفلسطينية". مَثَّلَ "الأرستقراطية الفكرية" و"جَمَعَ الشهادتين: شهادة الحبر وشهادة الدم". لمَ لا، وهو "الحبر المنحاز" للحقيقة وفلسطين. "كان باحثاً صارماً عن الحقيقة العلمية حتى ولو خالفت صحتها الموروث [...] نموذج المثقف الحر"، الذي "يرفض أن يكون في جيب أحد أو تحت جناح أحد".

عُرف صايغ بـ"المعلم" الذي آمن "أن فلسطين تتشكل في الكلمات"، الـ "أشبه بقديس علماني استشهد من أجل قضيته وهو على قيد الحياة"، الذي و"ككل المعلمين الكبار أعطى تلامذته نور عينيه". ثمة من رآه "مؤسس التعقل في أزمنة الفوضى"، وهاتك سر "الدولة الغامضة" إسرائيل. إنه "أنيس صايغ ... الذي لا غش فيه"، "عميد الباحثين العرب"، "المؤرِّخ"، بل "الطبري الثاني"، و"واحد من أسماء فلسطين الحسنى"، "النقيض البهي لـ(مثقف منظمة التحرير) الامتثالي والذرائعي".

هنالك من كَشَف به "المفكر الشديد الكبرياء، والاحترام للنفس، المتواضع، المثقف والصوفي في حياته". وإذ لاحظ من لاحظ "شخصيته العلمية والصارمة والدقيقة"، أطلق عليه لقب "أبو البحث الفلسطيني". إنه "شخص نظيف، متواضع، علمي ودقيق". استحق وصف "المثقف المحترف [...] الذي يؤكد على الحاسة الأخلاقية وعدم الانجرار وراء الاختصاص الضيق" و"ما حياته إلا تلخيصاً لمسيرة مثقف عضوي فلسطيني عاش القضية الفلسطينية وعاشته". "كان متواضعاً عزيز النفس وصاحب كبرياء، جمع بين الأدب واللطف، الحسم والانضباط [...] صريحاً يكره الكذب والتملق".

إذ يَسمو الإنسان فيصير طبيعياً: يستحق أنيس صايغ ما قيل فيه، بل وأكثر، لكني شخصياً، أعتقد أن حكاية الرجل كانت أكثر بساطة وإنسانية مما قيل، بغرض تثمين دور الرجل وتنزيهه. لم يكن قسيساً ولا راهباً ولا قديساً. لا ناكراً لذاته ولا مُتقشفاً ولا صوفياً. لو أراد أن يكون قسيساً، حتى للثقافة، لورث مهنة والده ودوره. ولو رَغِبَ في قداسة وتقديس لما غادر نحو علمانية صارمة. لم يكن ناكراً لذاته العصية على الإنكار. أما تقشفياً وراهباً وصوفياً، فتنميط له في قوالب طالما رفضها، لما يعنيه من

تحطيم للذات الفردية، وتحويل الأمر إلى شكليات فهمها تمثيلاً أكثر مما رأى بها جوهراً.

توقَّفْتُ أمام هذه النقطة لأنها تمس بعمق جوهر فلسفة الدكتور أنيس صايغ عن مكانة الفرد المقدسة، وإن المحفوظة، في نطاق الجماعة، كما وتضرب بالصميم نمط الحياة التي عاشها الرجل، الذي كان مُحباً للحياة، أنيقاً دون تكلف، يهوى الفرح ويتمتع بالسفر والسينما والمسرح والطعام الطيب و... الشوكولاتة، كما يحب ربطات العنق الجميلة والساعات. حفظ دائماً لشقيقه فايز، فيما حفظ له، أن أول ربطة عنق لبسها وأول ساعة حملها كانتا هدية فايز له. ولراغب في تفصيل، كان لأنيس صايغ الوقت للتواصل الاجتماعي والنوم لسبع ساعات يومياً ومبكراً، كما لحلاقة ذقنه كل صباح.

كانت له إجازته الأسبوعية والسنوية، حيث يسافر للمتعة والتجدد، ولذلك كان الفصل الجميل والطويل في مذكراته عن المدن وحكاياتها معه، وهو القائل في صفحة (٣٧١) من مذكراته: "أقمت وزرت وتجولت في المئات من المدن في العشرات من الدول في القارات الأربع". وللمقارنة؛ بلغ حجم فصل "في المدن وحكاياتها"، (١٠٠) صفحة، ونصيب فصل "في مركز الأبحاث والموسوعة الفلسطينية"، (٧٥) صفحة، أما فصل "في العلاقات مع السيد ياسر عرفات" فبلغ (٤٧) صفحة فقط.

كان أنيس صايغ فرداً مميزاً ولكنه كان طبيعياً، وبذلك عَكَسَ فلسفة عميقة وقناعة راسخة، بأن أقصى درجات الإبداع والتألق هو الوصول للطبيعي وتحقيقه. والطبيعي فاضح للخلل لأنه يُكَرِّس قاعدة لقياس الصواب والخطأ، من أي جانب كان؛ سواء أتى من ناحية ذلك المنطق الذي يريد تدمير الفرد باسم الجماعة والحاضر باسم المستقبل، أو يستعيض عن الجوهر بالمظهر، أو أتى من المنطق النقيض الذي اغتال المستقبل بشهوة الحاضر. وباسم تقديس الفرد وحفظ مصالحه، وبكلمة أدق أنانيته وحيوانيته، برر له أن يكون لصاً وجَشِعاً وصولاً إلى الرُخص والدونية وهتك القيم والزبائنية.

رجل الواجب أم الرجل الأسطورة؟ كان أنيس صايغ، العلماني، موضوعياً وبالبداهة، ضد أسطَرَة الأشخاص والأفعال والظواهر ووضعها خارج التاريخ والعقل، بما يعنيه القول من زمان ومكان وشخوص محددين.

وعليه، فإن ما حققه الرجل من نجاح، هو في نطاق الممكن لا الاستثناء. قد يقال: إذا لم يكن نجاحه استثناء فلماذا لم يتكرر؟ لماذا لم ينجح غيره من قادة ومسؤولين رسميين، كل في نطاق اختصاصه، كما نجح، وعندها كان التاريخ الفلسطيني قد تغير أو صار أقل فداحة؟ ربما.

وعليه يصير السؤال ويبقى: هل كان الرجل استثناء يصل حد الأسطورة، أم رجلاً قام بواجبه، وفق الحس السليم والمفهوم المتداول أو التعريف البسيط للواجب كما يقدمه أي قاموس معرفي؟ هل أنيس صايغ هو الاستثناء الإيجابي الذي خرق القاعدة الطبيعية، العادية والسلبية، أم أنه كان القاعدة الطبيعية، العادية والإيجابية، التي اغتالها الاستثناء السلبي؟ لسنا أمام لعبة كلمات، بل أمام كيفية حماية حقيقة الرجل الذي يُغتال حين تتم أسطرته من ضمن عملية تزوير شاملة للمعايير والقيم.

لقد كَرَّس الدكتور أنيس صايغ حياته لحفظ المعايير وكرامة اللغة وصدقيتها. منه سمعنا عن: "الضرورة المقدسة للنزاهة الفكرية والأخلاقية في القول والعمل". معه رددنا: "حين لا تعود الكلمات معبرة عن معانيها يكون الانحطاط". عنه حفظنا قاعدة: "إن خطأ تضخيم الطبيعي إلى استثنائي، هو الوجه الآخر لخطيئة ممالأة السلبي وتسويغه بوصفه طبيعياً، وهكذا، يصير معفياً من النقد والمساءلة". لاحقا، أُريد للخطأ أن يصبح قاعدة وعلى الصواب الاعتذار منه، وهذه نهاية مفجعة كان لا بد وأن تتطور إليها تلك الانزلاقة من المس بالمعايير وصولاً إلى تكسير منظومة القيم بعد تشويهها.

حين نقف أمام مفردات المديح هذه الأيام، بل منذ زمن طويل، نُدرك كم الخسارة باهظة. لم تُسرَق أعمارنا فحسب، بل اغتيلت اللغة وتم تلفيق منظومة قيم جديدة شاذة ومُدمرة ولا علاقة لها بطبيعة الشعب وثقافته الأصيلة وقيمه الأصلية. بدلاً من الارتقاء والسمو، هُبِّط بالقيم وخُفِّض سقف المعيار في مناقصة مريعة طالت، فيما طالت، الكرامة والوطن والذاكرة. صار كل شيء "أعجوبة" و"استثنائي"، حتى ولو تعلق الأمر ببديهيات من نوع إدراك أهمية الزمن واحترام النفس والكلمة والوقت، الذي قيل فيه منذ بدأ الزمن: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك. لم يستسلم أنيس صايغ للمعايير الخطأ، ولم يخترع جديداً وهو يذهب في وقته المحدد ليكون على رأس عمله في الثامنة صباحاً.

كان ذلك أعجوبة بمقاييس المعايير الشاذة، لكنه، بنواميس عباد الله الصالحين، والساعين إلى الحياة، والبادئين يومهم مع إشراقة الشمس وصيحة الديك، كان طبيعياً. لم تكن منطقة رأس بيروت لتضبط ساعتها وتلاحظ ذهاب أنيس صايغ لعمله لولا أنها كانت استيقظت مع "طلوع الضو"، عدا قلة هي شذوذ القاعدة. كان مواكباً للحياة في يقظتها المُبكرة، وبذلك لم يكن استثناء. كان أذكى من أن تفوت عليه لعبة أننا نؤسطره لنخفي عجزنا عن الوصول إلى الحال الطبيعي فنضاهيه ونستحقه.

إشراقة العَمَل تبدأ مع الشمس: على الدرج أو قُرب باب المصعد، كان أنيس صايغ، الذاهب لعمله قُبيل الثامنة، يتبادل تحية الصباح مع جارته العائدة من الخارج بعد أن أوصلت أولادها لمدارس أو تحوجت من سوق. يقابل على مدخل البناية البواب المُستعِد للخدمة بعد أن أنهى تنظيف سلم البناية ومدخلها منذ فترة. يقطع الشارع بحذر تلافياً لسيارات تركض بركابها إلى أعمالهم. تتسلل لأنفه رائحة المأكولات من مطعم قريب، ويلمح رجلاً مهرولاً يقضم لقمته بشهية. قبل دخول مركز الأبحاث يلقى نظرة على البقالة المفتوحة والواقعة على الجانب الآخر من الرصيف، يلمح أبو فريد منهمكاً بتلبية طلبات زبائنه، وبعضهم من موظفي المركز الذين يتزودون بحاجتهم قبل الدوام.

يدخل الدكتور أنيس صايغ ورِجْله على رِجل نائبه إبراهيم العابد، الواصل قبل الثامنة من مدينة الشويفات الواقعة خارج بيروت، أما عصام سخنيني، الآتي من الحارة في الضاحية الجنوبية، فوصل قبلهما. سكرتيرتا المركز، كاترين الفار الساكنة منطقة صفير خارج بيروت جنوباً، وسلوى خوري الحاضرة من الزلقا شرق بيروت، بكرتا بالحضور ليكون كل شيء جاهزاً لبدء العمل في موعده. أما المحاسب صابر حنون فكان تفقد خزنته وعد نقودها ليطمئن باله. ما تقدم، ليس إلا مثلاً.

لا قيمة لكلام سابق إلا من زاوية ما يفضحه من وقائع شاذة. صار الدوام في الثامنة صباحاً، مسألة "تَدْخل التاريخ"! ما كان لهذه البديهية أن تستحق توقفاً، لولا أن "دوام" الثورة، يبدأ "عُرفياً" في العاشرة "تقريباً"، الممددة، ربما، حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة، هذا إن بدأت. بعد القهوة والشاي والثرثرات الواجبة وتصفح عناوين الجرائد، تكون الساعة قاربت الثانية، موعد الغداء، فيكفي الله المؤمنين شر القتال

والعمل! قطعاً، ثمة شذوذ، ولكن لتأكيد القاعدة الشاذة وهي بدء العمل ظهراً أو عصراً أو ليلاً، ونكتة كمال جنبلاط عن الدوام الليلي أشهر وأرذل من أن يُسمح بكتابتها.

النظام والتنظيم: لتحفيز النضال والإبداع أم لعرقلتهما؟: وفق أنيس صايغ في مذكراته، (ص: ٤٧– ٤٨)، فإن "الموعد مُقدس" و"دقَة المواعيد عملية حضارية وخُلُقية وفضيلة اجتماعية. ومن يتخلى عن هذه الفضيلة يصبح حلقة نشازاً في سلسلة مترابطة". يضيف: "النظام والتنظيم وُجدا لمصلحة العمل، أي عمل، بما فيه النضال والإبداع، ويخطئ من يظن أنَ المناضل والمُبدِع إنسانان بعيدان عن (الروتينية) ويجب أن يبقيا خارج الانضباط حتى ينطلقا بحرية في أداء رسالتيهما النضالية أو الإبداعية. إنه كلام هراء. فالنظام سُنَّة الحياة، والانضباط هو القانون الطبيعي لسير الأمور".

يضمر باطن الكلام ما هو أكثر دلالة من ظاهره، الذي يكرر ما صار بديهياً منذ بدأت الحضارة الإنسانية. ما الذي دفع أنيس صايغ للتذكير ببديهية "النظام والتنظيم"، غير أنها لم تعد بديهية جراء "كلام هراء" يُقال باسم "النضال والإبداع". ولكن: هل لـ"كلام هراء" أن يكون لولا "فعل هراء"، بالأصل والتأسيس، يحتاج إلى "كلام هراء" وفوضى، تُغَيّب "النظام والتنظيم" لتضييع مسؤولية المسؤولين عن "وضع هراء" و"مصير هراء" وصلناه رغم جسامة التضحيات. بعد ما تقدم: هل من شك في مقولة بوفر: "المهزوم يستحق هزيمته"، التي تأسست حين صار النظام والتنظيم هراء؟ نعم.

يُقدِم الكلام السابق حقيقة الواقع الفلسطيني في تلك المرحلة، الذي عرف مفاهيم خاطئة تخلط بين الفوضى، بما هي تدمير لكل نظام، وبين الثورة، التي هي، بالجوهر، تحرير النظام من قيود تُعَطِل عمله أو تُوظفه على نحو خاطئ. كان الدكتور أنيس، وكأي صاحب عقل وضمير وحس سليم، لا يفهم معنى الاعتداء على شرطي البلدية أو إشارة السير مثلاً. كانت معادلة الرجل بسيطة ومُعَبِّرة في آن: "مَن يعجز عن تنظيف حمَّامَاته أعجز عن تحرير فلسطين من الصهيونية"، مثلاً. يشاء مكر التاريخ وواقع الحال المقيم والأليم أن أسمع المعادلة المذكورة نفسها، بعد عقدين من الزمن، بلسان الأصيلة آني كنفاني حين زارت مكتب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، في مخيم مار إلياس – بيروت.

الفوضى؛ غطاء المناضل المُدعي والمُبدِع المُدعي: تضمنت المقتطفات الآنفة ما قد يُفهم منها وكأن مشكلة النظام والتنظيم هي مع المناضل والمُبْدِع. كانت المشكلة مع المناضل المُدعي والمُبدِع المُدعي. لم تنشأ مشكلة مع مُبدِع حقيقي، سواء في مجال الأدب أو العلم. كان محمود درويش، المُبدِع الغني عن التعريف، نظامياً ومُنَظَماً ومُنتَظماً، وكذلك الروائي والناقد إلياس خوري. أيضاً سليم بركات، الشاعر والمُدقِق والمُحرر اللغوي، وهو الكردي المحتاج للنظام والتنظيم ليقوم بكل ما كان يقوم به، ومن ضمن ذلك مناكفتنا نحن العرب: "الذين نحتاج لكردي حتى يعلمنا لغتنا العربية"، بلغته!

أما إذا أخذنا "الصنف" الآخر من المُبدِعين في مجال البحث العلمي، فلا أذكر مشكلة إبداعية أو بحثية أو نظامية، نشأت. لقد دخل المركز وغادره كثيرون، ولكن لأسباب أخرى، لا تحول دون حفظهم الود لمركز الأبحاث ومديره أنيس صايغ. لقد نشأت مشاكل، ولكن مع الأقل إبداعاً، والأدنى خُلُقاً، كأن يُبدِع الواحد في المركز، إن أَبدعَ، لكن نتاجه يباع لآخرين بحثاً عن شهرة ومال. كان أنيس صايغ، حساساً ضد ازدواجية المواقف أو الولاءات أو الوجوه أو أمكنة العمل أو الرواتب.

لعلها مناسبة لتحية الأستاذة هيلدا زوجة الدكتور أنيس، التي كانت عليها واجبات موظفة مركز الأبحاث دون حقوقها، ومن ضمنها الراتب. "مدام صايغ"، كما تعودنا أن نخاطبها، باحترام ومحبة، أضافت للمكتبة موادّ محررة وتراجم ومؤلفات مرجعية عالية القيمة. لن أفصل أو أمدح المزايا الإنسانية العالية، أو الدور الوجودي الذي لعبته في حياة الدكتور أنيس، لأن ذلك من طبائع الأمور.

انضباط محمود درويش لتنظيم أنيس صايغ: ارتبط الكبيران بعلاقة جيدة امتدت حتى نهاية حياتهما، على ما يعرف الجميع. أزعم أن محمود درويش كان مؤيداً بقوة لنظام أنيس صايغ وتنظيمه، لرزمة أسباب، ملخصها أنه كان صاحب قضية أولاً ومُبدعاً ثانياً ومُثقفاً ثالثاً. لقد غادر محمود إسرائيل وهو في الثلاثين، وهذا عُمر كاف ليلاحظ ويفهم، بل ويثمل، بدور النظام والتنظيم في صُنع قوة إسرائيل وهزيمتنا. لم يكن بحاجة لمن يُذكِّره بقداسة النظام والتنظيم ودورهما في حسن استثمار الزمن. لاحقاً صار إحساسه، بل وإدراكه، أن عمره سيكون قصيراً، مهمازاً إضافياً كي لا يبدد وقتاً.

كان محمود درويش صاحب قضية تحتاج إلى معرفة دقيقة بإسرائيل، وهذا ما لا يتوفر إلا مع مركز للأبحاث حسب الأصول. ولذا، لم يكن محمود في مركز الأبحاث شاعراً فحسب، بل أيضا باحثاً في الشأن الإسرائيلي، واستطراداً، مُنتظماً في "القسم الإسرائيلي" أكبر وأهم أقسام مركز الأبحاث الفلسطيني. لم يكن انتظامه شَرَفياً بل فعلياً. كان صاحب رؤية جدية تماماً ومختلفة نوعياً عن رأي معظم "اليهود" الآخرين في القسم الإسرائيلي، كما كان محمود درويش وكنا نتندر عليهم. كان حاسماً في موقفه المعرفي لناحية كارثية اقتصار معرفتنا بإسرائيل على موجودات "سلة الزبالة" خاصتها.

والمعنى واضح، قراءة إسرائيل يجب أن تكون شاملة، وليست انتقائية، أي الاكتفاء برصف السلبيات، وما تنشره صحافتها من فضائح. كان محمود يحتاج للنظام والتنظيم كي "يدبر" وقتاً لمتابعة الثقافة العامة، بما في ذلك، ما هو بعيد عن الشعر والأدب: الاقتصاد، ربما لخلفيته الفكرية الماركسية. قد لا يخطر في بال أحد أن محمود، كان مشغولاً يوماً ما بتدقيق وفهم المقصود بظاهرة ومصطلح "الانكماش التضخمي" (Stagflation)، المنحوت حديثاً، حينذاك، من جمع مصطلحين وظاهرتين لا تجتمعان عادة في الفكر الاقتصادي الكلاسيكي، كجزء من متابعته للأزمة الاقتصادية الأمريكية في سبعينيات القرن العشرين. كان محمود كبيراً بتواضع فطلب مساعدتي في توضيح ما بدا له مستغرباً.

مركز الأبحاث؛ مجمع فكري: لم يكن مركز الأبحاث، زمن أنيس صايغ، "شوية ناس مُجَمعين"، على رطانة زياد الرحباني، بل بيئة حاضنة متفاعلة ومتكاملة ومتعاونة. كانت العلاقات رأسية مع المدير ونائبه، وأفقية مع زملاء الأقسام الأخرى، حيث كل واحد معاوناً للآخر. أما السيدة ليلى الخالدي الحسيني أمينة المكتبة، فكانت، على رأس فريقها، تؤمن لكل باحث "وجبته" الخاصة من المراجع. كانت تلفت نظر الواحد منا مع ابتسامة طبعاً: "وصل مصدر جديد يهم بحثك". لا أجازف لو قلت أن مركز الأبحاث، في حينه، جَمَعَ أكبر عدد من العقول تحت سقف واحد وفي روح واحدة.

حدد لي الدكتور أنيس صايغ ضرورة البحث وكتابة تاريخ "قطاع غزة ١٩٤٨– ١٩٦٧". لكن حين بدأتُ خطأ، صَوّب لي هاني الهندي، القومي

العربي العريق والدائم، المسار: بداية البحث، لناحية أن مفتاحه ليس التحليل الماركسي – الطبقي، بل كتاب "**الأخوان المسلمون في حرب ١٩٤٨**" لكامل الشريف. كان الدرس واضحاً: يجب تطابق المنهج البحثي والأسس الأخلاقية. أن تكون ماركسياً أو قومياً في فكرك أو عواطفك يجب أن لا يعني هضم الحقيقة أو حقوق الإسلاميين.

تبرع جميل هلال، الزميل حينذاك في مركز الأبحاث، بتذكيري، أن أعود لكتاب **الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية**، وأطروحة تقسيم العمل على النمط الإمبريالي، وذلك بمعرض بحثي حول دور العمل العربي في الاقتصاد الإسرائيلي. أما عبد الحفيظ محارب فأصَّل فكرتي وهو يشير عَليَّ بأن العمل العربي في الاقتصاد الصهيوني، ليس جديداً بعد ١٩٦٧، بل يعود لبداية القرن العشرين. قد يفاجأ كثيرون أني شخصياً من وقع عليه الاختيار لمراجعة مخطوطة صبري جريس: **تاريخ الصهيونية** – الجزء الأول، قبل نشرها. أنجزت المهمة بمسؤولية وقَبِل صبري جميع ملاحظاتي الـ (١١٣) بمحبة وامتنان.

احتاج أنيس صايغ إلى الإرادة والنظام والتنظيم فقط لينقل نموذج كامبردج من بريطانيا إلى شارع كولومباني في رأس بيروت مع مركز الأبحاث، الأهم في حينه، والذي اكتسب مستوى عالمياً. أسس صايغ كامبردج أخرى في تلة الخياط، حيث أصدر الموسوعة الفلسطينية. لم يستورد خبراء أجانب لينجزوا له ما أُنجز، بل اعتمد على أساتذته وزملائه وتلامذته. ولمن لا يعلم، قامت بدايات مركز الأبحاث وسنواته الذهبية الأولى والصعبة على أكتاف خريجين جدد كان في طليعتهم إبراهيم العابد تلميذه النجيب ومساعده الكفء وصديقه المخلص. لم يخلق أنيس صايغ النظام والتنظيم، بل إن النظام والتنظيم هما من طَرَزَا صايغ الذي أبدع مركز الأبحاث والموسوعة الفلسطينية بالنظام والتنظيم.

حُسن الأداء يعوض ضُعف الإمكانات: هنالك من يحيل تقديس الرجل للنظام والتنظيم إلى مرجعية فكرية ودينية بروتستانتية تحض على العمل وتسمو بنظرتها إليه لدرجة تحويله طقساً دينياً. ثمة من يُبرز دور تجربته البريطانية، دراسة وتدريساً، في ذلك. أتى كل هذا لاحقاً، بعد أن كانت تمت صياغته بقوة مَثَل أُسْرته. يتحدث في مذكراته عن "تربية بسيطة ومتواضعة" ومدخول "أدنى بكثير من المتوسط وأضعف من أن

يلبي حاجات عائلة محترمة من تسعة أفراد، وكل أبنائها في مرحلة من مراحل الدراسة". وأن "ما أنقذ الوالد من الإفلاس قدرته والوالدة على العيش ببساطة والتقَيد بسلم أولويات". لم يملك الأبناء يوماً تَرَف الفشل، وشَكّل نجاح أحدهم قنطرة عبور الآخر إلى بر الأمان.

يلاحظ قارئ مذكرات الدكتور أنيس صايغ، والمُطَلِع على تجربته، أن بُرهانه على صحة أطروحته السالفة عن النظام والتنظيم، مأخوذ من تجربته العائلية، حيث رسولية الوالد وتدبير الوالدة وتعاون الأشقاء، من ضمن قاعدة "العيش ببساطة والتقيد بسلم أولويات". وهو إذ طرح موضوع "النظام والتنظيم" في مذكراته، فقد كان ذلك بمعرض حديثه عن العام الفلسطيني، الذي لا مستقبل له إلا إذا اعتمد تلك "القيم العائلية" التي ثَبُتَ نجاحها. لعل أنيس صايغ كان ينظر إلى القضية بوصفها مسألة شخصية، والشعب الفلسطيني، عائلة كبيرة عليها "تعويض ضُعف الإمكانات بِحُسن الأداء".

لم يكن أنيس صايغ، والحال هذه، مهووساً بالنظام والتنظيم والدقة واحترام الوقت لأسباب شخصية فحسب، بل كان أيضاً مرعوباً من أن يفوتنا التاريخ وتتأبد نكبة الشعب الفلسطيني بإعادة إنتاجها مع إعادة إنتاج تخلفنا، وهو ما كان، مع أسف. لا يخطئ من يستنتج أن مصير عائلة أنيس صايغ الصغيرة اختلف إيجابياً عن المصير الصعب لعشيرته الفلسطينية الكبيرة جراء اختلاف منظومات العمل. كان يقينياً، على نحو راسخ، بأن التخلف سبب هزائمنا، وأن المستقبل رهن العلم والعمل، و"العبرة ليست في الحق، بل في استحقاق الحق"، كما قال ودعا أستاذ الجيل د. قسطنطين زريق.

أنيس صايغ يقاتل دفاعاً عن حق الثورة في النظام والتنظيم: جرى لاحقاً تسييس أنيس صايغ، بالمعنى الضيق للكلمة، وحُشرَ في زوايا مُغلقة ليست له. لعل الأسوأ، تصوير افتراقه المنهجي عن القيادة الرسمية على أنها حصيلة خلافات سياسية ووليدة تجاذب اتجاهي "الرفض" و"القبول" في الساحة الفلسطينية. ثمة من ابتذل المسألة إلى بُعد شخصي وتنافر كيمياء. فات أصحاب هذا المنطق التسطيحي، أن الخلاف المنهجي سابق للرفض والقبول، وهو وليد مرحلة ما بعد حرب ١٩٧٣، في حين أن الدكتور أنيس صايغ فَكّر في ترك مركز الأبحاث منذ ١٩٧٢،

وفق مذكراته، (ص: ١٥٦). لم تكن تجربة صايغ المُرة إلا حلقة أخرى من سلسلة التباسات العلاقة بين السياسي والفكري، بل صراع الفكرة مع الثورة وهي تنزلق إلى فوضى موصوفة، تتسلل عبرها الزبائنية، من كل حدب وصوب.

تقتضي الحقيقة ذكر أن الصدام الجَدي الأول للسلطة الفلسطينية حينذاك مع النظام والتنظيم واحترام المواعيد كما جسده مركز الأبحاث، كان بشخص إبراهيم العابد، سكرتير تحرير مجلة **شؤون فلسطينية**، وذلك في الأيام الأخيرة من العام ١٩٧٢. والسبب على ما عشناه وفَصّله الدكتور أنيس، وكان عند وقوع الحادثة يزور القاهرة، في مذكراته (ص: ٣٠١-٣٠٢)، يعود إلى وجود ملاحظة فنية هامشية على شكل نشر المجلة، عدد (١٧)، لرسالة أبو عمار بمناسبة الذكرى التاسعة لـ"فتح". كانت مطاردة إبراهيم العابد حينذاك مُحَفِزاً ليغادر لاحقاً، مع بعض الزملاء وبهدوء، مركز الأبحاث.

ما حصل مع العابد يفقد إلياس خوري فرادة وأسبقية مثقف مركز الأبحاث المُطارد في أزقة بيروت من "أمن الـ١٧". طُمس تحت ركام الذاكرة أن المركز عاش فترة مضطربة لم تهدأ إلا بعد أن نزف معظم باحثيه، جراء تجاهل القيادة الفلسطينية لإجماع غالبية ساحقة من العاملين على رأي أبلغوه لأبي عمار الذي أتى المركز للاجتماع بهم. يومها خطب محمود غاضباً وقال جملته الصادمة الداعية إلى الخروج على قاعدة بائسة ومدمرة معمول بها فلسطينياً، وهي "أكل الخراء باستمراء"، بلغة درويش، حيث "المطلوب من الفلسطيني فوق بلع الخطأ مع ابتسامة، استمراء ما يرتكبه ناسه بحقه"!

سُخف حال المثقفين مع المعارضة: طُمس تحت ركام الذاكرة أمر هجرة محمود درويش من بيروت بعد أن سجل موقفه الضميري بمقال غاضب نشره في مجلة **شؤون فلسطينية**، حمل عنوان "الإرهاب الأسود"، الذي يعكس فصلاً مظلماً في التاريخ الفلسطيني. حينذاك، كان بين المفردات السلبية في لغة محمود درويش مصطلح "البلاط الفلسطيني" بالغ المعنى وواضح الدلالة السلبية، كإهداء كتابه **وداعا أيتها الحرب وداعا أيها السلام**، "إلى الدماء التي ذهبت دون أن تسأل عما نفعله بهداياها العظيمة". طُمس أيضاً ذكر أن من كتب عن "ماذا يجري في مركز الأبحاث" فُصِلَ من عمله.

أما وأننا في شهادة للتاريخ، فهذه يجب أن تشمل حظ المثقفين مع "المعارضة" الذي كان أكثر بؤساً، بل وسخفاً، من حظهم مع "السلطة" الفلسطينية. لاحقاً، سنفرد عنواناً لحال الدكتور أنيس مع المعارضة، ولذا سنكتفي الآن بعرض المثلين الآخرين. في ذروة افتراق محمود عن "السلطة"، هوجم بابتذال من مجلة التنظيم الأول في "المعارضة"، والسبب: "ارتكاب" محمود درويش "جريمة" الزواج من الشاعرة رنا قباني؛ "ابنة شقيق سفير النظام السوري في الأمم المتحدة"، على ما نشر حرفياً! يومها أخذ محمود علماً أن بين مقتضيات خلافات الأنظمة عدم تحاب الأفراد وتزاوجهم!

حزن محمود درويش لبؤس ما كتب عنه، كما لتهَلهُل حال المنبر الذي انطلَق منه الهجوم. استخرج الدلالة الأخلاقية والفكرية للدوس على ثلاثة حقوق للإنسان لا يجوز مسها، على ما قال لي: الولادة، والموت، والزواج. هذه الواقعة كانت سبباً لقلق محمود على مستوى عقل المعارضة وفعلها، بما هي ضرورة ماسة لاستقامة وضع السلطة. وُصِف إلياس خوري من المنبر المعارض نفسه، بأنه "يتلطى بالكوفية الفلسطينية للارتزاق"، وهكذا تساوت ضربات السلطة والمعارضة في الهدف الواحد. نجحت لاحقاً في توفير اعتذار مكتوب وعلني لإلياس، الذي بكى لحال المعارضة الفلسطينية، أكثر مما حزن لما صار له شخصياً. استخلص، كما محمود، الدرس، وبقي على خط الواجب، ولكن مع سؤال ساخر: هل من يريد العمل مرتزقاً يذهب إلى فلسطين؟ لم تعجبه الحكاية، على الأقل لسذاجتها.

أنيس صايغ يصارع دفاعاً عن نزاهة التاريخ وشرف المؤرخ: لم يدافع الرجل، فيما قال وفعل، عن قيم العمل والوقت والنظام والتنظيم فحسب، بل كان مدفوعاً أيضاً بشخصية المؤرخ النزيه الذي يدرك جيداً أن التاريخ ليس مطواعاً، فيبدأ أو يتوقف حيث يريد هذا الشخص أو ذاك، مهما علا مقامه. لذا، وبدلاً من الأسباب الحقيقية لخلافات أنيس صايغ هنا أو هناك، اختُرعت أسباب زائفة، بأن صور "شقيرياً"، مثلاً! وفي التسمية مجاز بالغ الدلالة. إنه اختصار المسألة إلى استزلام، بعد ابتسار التاريخ والمجتمعات إلى أفراد يبدأ معهم التاريخ وبهم ينتهي. لا ريب أن مثل هذا المنهج/المنطق يُفقد الأفراد والولاءات والمواقف كل مضمون/جوهر. يشاء مكر التاريخ أن يعبث بنا ومعنا، فيصير، في

مرحلة لاحقة، كل متفهم لسياسة ياسر عَرَفات، عَرَفاتياً، ليس إلا. لا فلسطينياً ولا حتى فتحاوياً!

لم يُنكر أنيس صايغ أحمد الشقيري، لسبب محترم هو أن صايغ كان مؤرخاً محترماً، والتأريخ المحترم لا يقبل منهج الإنكار، كما ولأن الشقَيري كان تاريخاً طويلاً وغنياً ومُحَقَقاً. على الأقل، هو منشئ منظمة التحرير الفلسطينية وأول رئيس لها. كان أنيس صايغ فيما فعله، وفياً للتاريخ وفلسطين وليس للشقيري. ولأنه كذلك، اهتم بالحاج أمين الحسيني والهيئة العربية العليا وحكومة عموم فلسطين. اتسعت منشورات المركز وعلاقات أنيس صايغ لأصدقاء الحاج أمين الحسيني وخصومه، للقاوقجي، وعوني عبد الهادي، وأكرم زعيتر، والقائمة رَحبَة. لم يَطُل الزمن والمقام بأنيس صايغ في مركز الأبحاث ليكمل مشروعه؛ تدوين التاريخ وحفظ الذاكرة وهو ما حققه بالموسوعة الفلسطينية.

أنيس صايغ يكره انحطاط السلطة ويحتقر انفصام المعارضة: لم يكن حظ أنيس صايغ مع المعارضة الفلسطينية أفضل حالاً من حظه مع الموالاة والسلطة. ولذا؛ لم يكن نصيب المعارضة من حُكم الرجل أفضل من نصيب الموالاة والسلطة. وإذا كانت الأولى بنظره "رمضاء"، فالثانية "نار"، والعكس بالعكس. صار معروفاً ومكرراً رأيه بالموالاة، ولذا نكتفي بإثبات قوله حول أداء المعارضة من خلال مثل ورد في مذكراته (ص: ٤٨٠)، عن اجتماعاتها للرد على أوسلو، حيث يقول: "لبيت الدعوات ولم أتخلف عن اجتماع واحد، مع أنني (أقول ذلك بصراحة وبحزن) لم أشهد في حياتي فوضى وعبثاً ولامبالاة ولا مسؤولية مثلما شهدت في تلك الاجتماعات التي بلغ عددها العشرة".

أزعم أن الحكم السابق هو الأقسى، الذي أصدره الدكتور أنيس بحق فرد ما أو جهة بعينها. وهو في ناحية إذ كره انحطاط السلطة، ففي أخرى احتقر انفصام المعارضة، ممثلاً بسلوك معارض لأوسلو لكنه لا يرى ضيراً "بلقاء رئيس دولة إسرائيل"، أما رئيس لجنة مؤتمر معارضي أوسلو فـ«يعقد لقاء مع التلفزيون الإسرائيلي يغازل فيه سياسة عرفات متجاهلاً أن المؤتمر إنما انعقد لرفض تعديل الميثاق الفلسطيني الذي قام به عرفات»، (المذكرات، ص: ٤٨٢). لعل المُتابع لآراء صايغ يستنتج بسهولة أنه كان للسلطة أن تكون أفضل حالاً لو كانت المُعارضة الفلسطينية، في حينه، أفضل حالاً.

بين جورج حبش وأنيس صايغ: أسعفني الحظ أن أكون مُنظماً وشاهداً على لقاء رَتَّبْتُهُ بين الدكتورين جورج حبش وأنيس صايغ خلال أزمة مركز الأبحاث. عُقد اللقاء في شقة أحد أعضاء الجبهة الشعبية ببناية بركات في قريطم – رأس بيروت، أواخر ١٩٧٦. عَرَضَ صايغ لطبيعة الأزمة ولم يطلب شيئاً محدداً. أما حبش فأبدى تفهُّماً وتعاطفاً داعياً لاستيعاب الوضع، ومُقَدِراً عالياً دور المركز وقيادة الدكتور أنيس له. لم يُغَير اللقاء من مصير قررته عوامل أخرى تتجاوز الرغبات إلى القُدرات.

كان حظي جيداً إذ كنت مُنَظماً وشاهداً على لقاء خاص ثان بين الرجلين، حبش وصايغ، وذلك في خريف ١٩٨٧، بناء لطلب الحكيم الذي كان مهجوساً حينذاك بالبحث عن "فهم أعمق وأدق للمشروع الصهيوني"، وذلك مع اقتراب الذكرى الأربعين لنكبة ١٩٤٨. كان طموح الحكيم أن تعقد ندوة فكرية عالمية تَطرح سؤال النكبة وفهمها، يكون موعدها (١٥) أيار/مايو ١٩٨٨. لم يُقَدر للقاء أن يُثمر النتائج المتوخاة، فقد كان الوقت متأخراً والفترة قصيرة لإعداد ندوة بهذه الأهمية.

فضلاً عن عامل الوقت، كان الدكتور أنيس مُسْتغَرقاً حينذاك في خضم الموسوعة الفلسطينية، على ما أفاد معتذراً. استُبدَل مشروع الندوة بدراسة، حملت العنوان نفسه، وقد أُنجزت من قِبَل كاتب هذه السطور، الذي وجد كالعادة، النصيحة الصادقة والثمينة من الدكتور أنيس صايغ لإنجاز ما رَغِب فيه الدكتور جورج حبش من "فهم أعمق وأدق للمشروع الصهيوني". ما لم يرغب فيه أحد من الثلاثة، هو أن تموت تلك المخطوطة الثمينة في الأدراج، كما مات سواها من جهود فكرية متعددة.

اللقاء الأخير مع أنيس صايغ: يملك كل من عَرف الدكتور أنيس أو عَمِل معه حكايته الخاصة عن تلك العلاقة وصاحبها. قد تطول حكاية البعض وتقصر حكاية البعض الآخر، لكن جميع الحكايات الخاصة، الفردية والجزئية، تتقاطع عند الصورة العامة المألوفة والمتداولة للرجل. لي حكايتي الخاصة الممتدة منذ عملت تحت إدارته الذهبية لمركز الأبحاث في أوائل سبعينيات القرن الماضي، وحتى آخر زيارة عائلية له ولزوجته في منزلهما قمت بها وزوجتي درية، التي تعرف الدكتور أنيس وزوجته السيدة هيلدا، منذ أيام مركز الأبحاث، حيث عَمِلت إلى حين إغلاقه بعد تفجيره في ١٩٨٣/٢/٥.

كانت تلك الزيارة قبيل سفرته الأخيرة إلى عمان عشية عيد الميلاد، وتمت بناء لموعد مسبق متعدد الغرض؛ للاطمئنان والمجاملة بمناسبة الأعياد، وتسليمه مادتين منشورتين حول مذكراته تنقصان أرشيفه. المادة الأولى لصديقه خالد قشطيني الصحافي العراقي في جريدة **الشرق الأوسط** اللندنية، والثانية، تفريغ مكتوب لحديث الدكتور عزمي بشارة حول مذكرات الدكتور أنيس لفضائية الجزيرة.

لا قيمة عامة للواقعة السابقة، إلا من زاوية أولى هي حرصه على التوثيق، وهو يستعد لأخذ ما وُجه لكتابه من نقد مستحق، بعين الاعتبار في طبعة لاحقة. أما الزاوية الثانَية والأهم فهي أنه كان حريصاً، كشقيقه الدكتور يوسف، أن يُفسِّر ما يَطلب أو يَعمل. قد يرى البعض في هذا اعتذارية ما، ولكنه كان يريد أن يبقى منطقياً ومُسَبباً ومُحترماً لنفسه وللآخرين. ذَكَر أنه سمع متأخراً عن مادة قشطيني، أي بعد سَحب العدد من السوق، فلم يؤرشف المادة التي نشرها. أما مادة الدكتور بشارة فلم يتمكن من تسجيلها عن التَلفزيون لأنه علم بأمر الحلقة قبل دقائق من بثها فاستمع إليها فقط.

سألتُ الدكتور أنيس صايغ عما إذا قرر بشأن العرض الذي قدمه له الدكتور خير الدين حسيب، المدير العام لمركز دراسات الوحدة العربية، في اجتماع عقد بينهما قبل أسبوعين من لقائنا الأخير محل الحديث، في مكتب حسيب، وكان لي شرف حضوره، للإشراف على سلسلة خاصة من كتب تثقيفية موجزة للشباب ينوي مركز دراسات الوحدة العربية إصدارها. أجابني الدكتور أنيس أنه يحتاج مزيداً من الوقت للتفكير. استطرد: صحتي لم تَعُد تساعدني كالسابق، حين كنت متابعاً لكل ما يجري، وأَسرَد عدة أسماء مؤهلة لإنجاز موضوع معين، أو عدة مواضيع تناسب شخصاً بعينه.

عن فايز صايغ وشارل مالك: ذكَّرت الدكتور أنيس بحديث سابق بيننا حول إعداد كتاب عن الدكتور فايز صايغ والتعريف به كما يستحق، وخصوصاً دوره المشهود في إصدار القرار ٣٣٧٩ عن الأمم المتحدة، الذي يعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري. أجاب: علينا أن نسرع لأن الذين يعرفونه ويمكن أن يسهموا في الكتابة التوثيقية عنه، يتناقصون يوماً بعد يوم. كانت المفاجأة حين استطرد الدكتور أنيس متحدثاً عن كفاءة الدكتور فايز وخبرته الطويلة، التي

تعود إلى حين كان مستشاراً للوفد اللبناني في الأمم المتحدة برئاسة الدكتور شارل مالك العام ١٩٤٩.

استوقفت الدكتور أنيس مستفسراً، فأكد أني فهمت صواباً. سأل: أين الغرابة في أن يعمل فايز مستشاراً للوفد اللبناني في الأمم المتحدة برئاسة الدكتور شارل مالك العام ١٩٤٩، وفايز كان محل معرفة مالك وإعجابه منذ كان تلميذ فلسفة لديه في الجامعة الأمريكية ببيروت أوائل الأربعينات؟ قلت: لقد حللت لي لغز كتاب شارل مالك؛ "**إسرائيل وأميركا والعرب: تنبؤات من نصف قرن**". قال: لم أره أو أسمع عنه سابقاً. جدير بالذكر أن الكتاب صدر في ٢٠٠٢ عن دار النهار– بيروت، في ١٥٢ صفحة، وهو بالأصل تقرير أرسله مالك لأهل الحكم في لبنان، ويحمل تاريخ ١٩٤٩/٨/٥.

سأل: عرفت ماهية الكتاب، ولكن ما هو اللغز؟ قلت: التقرير محل الكتاب أُعد سنة ١٩٤٩، ومالك توفي سنة ١٩٨٧، والكتاب صدر سنة ٢٠٠٢. لماذا تأخر كل هذه المدة؟ لماذا لم ينشر في حياة شارل مالك لو أراد النشر؟ لماذا لم ينشر في حياة فايز صايغ المتوفى سنة ١٩٨٠؟ أسئلة لا أجوبة لها إلا إذا فهمت في سياق تناقض لغة ومضمون الكتاب محل التناول، مع سياسة ولغة ومنهج شارل مالك وتاريخه السياسي والأيديولوجي. لقد صدمتني، كما كثيرين غيري، وعبروا عن ذلك كتابة وصراحة، الصورة الجديدة والانقلابية التي قدمها الكتاب عن شارل مالك –الكتاب– تقرير ١٩٤٩، المتناقضة كلياً مع الصورة التقليدية لمالك قبل تقرير ١٩٤٩ وبعد تقرير ١٩٤٩.

شكل الكتاب، حين نشر سنة ٢٠٠٢، قطعاً كاملاً مع سياق شارل مالك، لأنه يعكس تخصصاً عميقاً وولاء عاطفياً عالياً لفلسطين والشأن القومي عموماً، ومتابعة تفصيلية ودائمة لهما، ناهيك عن التفرغ لإجراء الأبحاث المطلوبة وصياغة تقرير بهذا الطول وتلك الكفاءة، وكل هذا لا يتوفر للسفير مالك، بل للمستشار صايغ، الذي، ككل مرؤوس، يكتب، لكن الرئيس يلقي الخطاب أو يرسل التقرير لحكومته. وعليه، يقوم دليل منطقي على أن صايغ هو صاحب التقرير الذي أرسله مالك، وأن التباساً بين من كتب التقرير ومن أرسله بحُكم سلطته، أفضى إلى نسبته لمالك، بحسن نية، ربما؟ كنا على موعد بعد عمان لنكمل البحث، لكن القدر وضع نقطة وأنهى سطراً وأقفل صفحة.

كيف قَدَّم أنيس صايغ قوة المثل: إن كان من حكاية لي تستحق أن تروى لأنها تُعَرِّف بعالم الرجل وروحه في العمل، فتتعلق بمقالي "الاتفاقية الجديدة بين السوق الأوروبية المشتركة وإسرائيل" المنشورة في عدد ٤٤، نيسان/أبريل ١٩٧٥ من مجلة **شؤون فلسطينية**. قرأت الاتفاقية مترجمة عن العبرية ظهر يوم سبت، فأسرعت لإبلاغه بخطورة المضمون. أوجزت بدقائق. ألقى نظرة على الاتفاقية وعلق: يجب كتابة مقال وبسرعة للتنبيه إلى خطورة الحدث. يجب اللحاق بعدد **شؤون فلسطينية** قيد الإعداد، الذي كان على وشك الإغلاق. اليوم السبت وغداً عطلة والمركز مُقفل. ما العمل؟

قرر بسرعة: غداً الأحد في الثامنة مساءً يكون المقال عندي في البيت، أُراجعه ليلاً ليكون صباح الاثنين على مكتب إبراهيم العابد ليدققه أيضاً. صباح الاثنين، مرض إبراهيم، فأرسل له المقال إلى بيته في الشويفات مع رسول انتظر حتى أتى بالرد. لاحقاً، حين استفاقت الدوائر الرسمية العربية ومنها الجامعة العربية على الاتفاقية، طلبت مساعدة ومشورة مركز الأبحاث الذي أرسل لها المقال، فتلقى منها، بشخص الدكتور محمد الفرّا، مساعد الأمين العام للجامعة، شكراً وافراً وتقديراً عالياً.

لعل هذه الحكاية، مثلاً، تلخص روح الدكتور أنيس: المقاتل المستعد دائماً على خط الواجب. المُبَادِر والجاهز لتلقي المبادرة. يُقدس الزمن. يقطع الإجازة ويستعيض عن المكتب المُغلق بالبيت. لا يأتي إبراهيم العابد إلى المركز فيذهب المركز إليه. سَهَّل كل شيء، لكنه التزم الأصول، بما في ذلك ضرورة مراجعة المقال من قِبل اثنين، هما الدكتور أنيس وإبراهيم العابد لضمان الجودة التامة.

تُوجز الواقعة السابقة روح مركز الأبحاث، كما جسدها أنيس صايغ في نظام كفل ترابط السلسلة، وسلاسة علاقات الحلقات، وسرعة أداء الأفراد. كان مفهوم المنظومة مُحَقَقاً بصيغته المُثلى. لا يقفل بابه، لكننا كنا نعرف لماذا نطرقه ومتى، فنجده مفتوحاً. لم يكن أحد راغباً في تسلية، والساعي إلى تقطيع وقت لا محل له في المركز أصلاً. ولأن طارق الباب جاد والموضوع جدي، يكون النقاش محدداً وموجزاً. ولا غرابة، لأن النقاش لا يبدأ من الصفر وثمة لغة مشتركة. كنا نعرف أننا نُجري حواراً في مركز أبحاث أواخر القرن العشرين وليس سجالاً في بيزنطة القرون الوسطى.

بين المُعَلمين والمَعْلَمين: الدكتوران يوسف صايغ وأنيس صايغ: اشترك كثيرون جداً في صداقة الشقيقين العَلَمَين؛ يوسف وأنيس صايغ، لكني لا أذكر أحداً سواي، تَتَلمَذ وعمِل فترة كافية مع الاثنين. حين شاء حظي أن أعمل بإشراف الدكتور يوسف، في أواسط ثمانينيات القرن الماضي، "تَشَفَّى" بي الدكتور أنيس وضحك ملياً حين علِم بالأمر وقابلني لاحقاً، قائلاً: "دائماً تشْكون دقتي. جَرِّب الآن الصعوبة على أصولها. غربال يوسف أضيق بكثير من غربال أنيس يا حسين". علق صديق "ملسوع" على الحكاية: أهرب بجلدك. أمجنون لتذهب برجليك إلى جهنم يوسف وأنت من جرب نار أنيس! ربما، ولكن ذلك منحني فرصة عبور الماراثون مرتين وبنجاح، مع أن واحدة تكفي جداً.

لاحقاً، ضحك الدكتور أنيس أكثر، حين أبلغته: "الدكتور يوسف لا يستخدم غربالاً. إنه يملك مُنخُلاً أضيق عيناً من بخلاء الجاحظ". ضحك على حالي مَرّة أخرى، حين لاحظ أني أجلس، بل "محاصر"، بينه والدكتور يوسف، الذي كنا في بيته بمناسبة اجتماعية. ضحك وربت على كتفي: "ليس لك مفر من آل صايغ: العدو، يوسف، من أمامكم، والبحر، أنا أنيس، من ورائكم، وليس لكم إلا الله والصبر والبحث العلمي"! اللهم، كان حظي استثنائياً بأن عرفت الاثنين فتعلمت مرتين.

قَدّم الدكتور يوسف صايغ للنسخة الأولى من كتابي **الاقتصاد الإسرائيلي**، لكنه مضى قبل صدور الطبعة الثانية المُزَيدة والمُنَقحة، دون أن يراها أو يُقَدم لها. أهديت الكتاب "إلى روح مُعلمي الدكتور يوسف صايغ [...] لأن الأثر الإنساني والعلمي له تعدى الكتاب إلى الكاتب، الذي يعتبر أن شرف التلمذة المديدة على يديّ يوسف صايغ هي امتياز يحسد عليه المرء، ولا يقدر قيمتها إلا من مرّ بنجاح ولغير مرة في مطهر علمي مُحب وصارم إلى حد الاستحالة؛ اسمه يوسف صايغ، طيب الذكر وغني الأثر. اللهم، لقد كان حظي من ذلك الامتياز عالياً ولذلك فإن حزني لرحيله عميقاً ومقيماً".

واليوم، إذ يغيب أنيس صايغ، لا أجد إلا الدمعة الحارة نفسها أذرفها بحرقة والكلمات نفسها أقولها: إن شرف التلمذة المديدة على يديّ أنيس صايغ هي امتياز يحسد عليه المرء، ولا يقدر قيمتها إلا من مرّ بنجاح ولغير مرّة في مطهر علمي محب وصارم إلى حد الاستحالة؛ اسمه أنيس صايغ،

طيب الذكر وغني الأثر. اللهم، لقد كان حظي من ذلك الامتياز عالياً، ولذلك فإن حزني لرحيله عميقاً ومقيماً.

نعم: كان حظي من ذلك الامتياز عالياً، ولذلك فإن حزني لرحيله عميقاً ومقيماً.

وداعاً أنيس صايغ.

المصير المأساوي لمركز الأبحاث الفلسطيني

سميح شبيب

المصير المأساوي لمركز الأبحاث الفلسطيني

سميح شبيب*

تشاء الأقدار، أن يكون تاريخ أربعينية د. أنيس صايغ، مؤسس مركز الأبحاث، هو يوم تفجيره، واستشهاد ثمانية من العاملين فيه، وهو تاريخ ٥ شباط (فبراير) ١٩٨٣.

أدى هذا الانفجار المروع، إلى استشهاد: صبحي علوان، سليم العيساوي، محمد عزام، بهاء الدين منصور، حنة شاهين، صباح كردية، منى خطاب، سناء عودة.

كما أصيب ١٨ موظفاً آخر بجراح، بعضهم جراحه خطيرة. وهؤلاء هم: محمد الأعرج، سعاد حايك، سامية زغيب، شادية المعتصم، أنور الخطيب، كامل قاسم، فادية شعبان، سهيل الناطور، هلا ضيف الله، يونس طه، رويدة أبو عدس، صابر حنون، فياض أبو العردات، سمر مكاوي، زهية صباغ، وفيقة صالح، وفاء كيلاني، عبد الله سكران.

كذلك أسفر الانفجار عن استشهاد جنديين من وحدة الجيش اللبناني التي كانت تقوم بحراسة المركز، هما طوني شيت، وذياب حبقة. كما أدى الانفجار إلى استشهاد عدد آخر من الأشخاص من زوار المركز أو المارة في الشارع العام، عرف من بينهم: لينا زهير العوف، ومصطفى بيساني، ووفاء خالد، وغنوة محمد ديب، وعيد مراد جرداق، وكارول إلياس خوري. كما أصيب نحو ١٠٧ أشخاص آخرين بجراح طفيفة.

---

* أستاذ مساعد في دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية – جامعة بير زيت

وإضافة إلى ذلك، هشم الانفجار مبنى المركز، وحطم معظم محتوياته، وأشعل النار في عدد من غرفه، كما أصيبت الأبنية المجاورة بأضرار بالغة.

لم يكن هذا الانفجار المروع أول الاعتداءات التي يتعرض لها مركز الأبحاث، فقد سبقته "مجموعة" من الاعتداءات المماثلة، وإن كانت أخف ضرراً.

ففي سنة ١٩٦٩، قام بعضهم بإلقاء متفجرة على مدخل مبنى المركز من سيارة مارة على الطريق العام بسرعة، أدى انفجارها إلى تحطيم زجاج المدخل.

وفي صيف سنة ١٩٧٢، أرسل مغلف ملغوم إلى المدير العام الأسبق للمركز الدكتور أنيس صايغ، فانفجر عند فتحه، وأصابه الانفجار بأضرار في يديه وعينيه وأذنه.

وفي أواخر سنة ١٩٧٤، أطلقت ٤ صواريخ على مبنى المركز من على ظهر سيارة كانت متوقفة في الساحة المحاذية له، فأصابت المكتبة وأدت إلى إتلاف بضع مئات من الكتب.

ثم توقفت الاعتداءات لبضع سنوات. يبدو أن المعتدين كانوا منهمكين خلالها في أمور أخرى، إلى أن استؤنفت السنة الماضية.

فخلال تموز (يوليو) ١٩٨٢، انفجرت سيارة ملغومة قرب مبنى المركز، أدى انفجارها إلى تحطيم أبوابه ومحتوياته، وإصابة حارس بجروح.

وفي الشهر التالي آب (أغسطس)، انفجرت سيارة مماثلة أخرى أحدثت أضراراً أخف من تلك التي نجمت عن الانفجار السابق.

وفي الشهر الذي يليه أيضاً أيلول (سبتمبر)، قامت قوات الغزو الصهيوني أثناء اجتياحها بيروت الغربية بالسيطرة على مبنى المركز ونهب معظم محتوياته.

الغريب في الأمر أن الاستخبارات العسكرية اللبنانية أصدرت بياناً رسمياً، اتهمت فيه العاملين في المركز بتدبير الانفجار، وتخزين الأسلحة، وأصبحنا بعد مفارقة عجائبية أبقتنا على قيد الحياة مطلوبين للأجهزة الأمنية اللبنانية.

وكان من الطبيعي أن نجاح المركز في القيام بدوره الكبير قد أثار حقد خصوم الشعب الفلسطيني، ولهذا تكررت المحاولات التي قامت بها إسرائيل وعملاؤها لشل نشاطه ولتدميره.

وعلى الرغم من فشل محاولاتها المتكررة، لم تتخلَّ عن هدفها في تدمير المركز أو تعطيله عن العمل. ولذلك، ما أن دخلت قواتها بيروت الغربية في ١٩٨٢/٩/١٥ حتى قامت وحدة من هذه القوات بمهاجمة مبنى المركز واقتحامه، بعد أن أخلاه آخر العاملين فيه قبل وصول الإسرائيليين بنحو ساعتين، ولم يبقَ فيه إلا حراسه المدنيون.

وفور اقتحامها المركز، شرعت الوحدة الإسرائيلية الغازية بعملية نهب محتويات المركز، وفي الوقت نفسه قامت المخابرات الإسرائيلية أثناء وجودها في بيروت بملاحقة المسؤولين عن المركز، فاقتحمت عدداً من البيوت التي تفترض وجودهم فيها، وواصلت عملية المطاردة لحين خروج القوات الإسرائيلية من بيروت.

وإذا كانت عملية المطاردة قد فشلت، فإن عملية تخريب المركز قد نجحت في تحقيق أهدافها الإجرامية إلى حد بعيد. فعلى مدى الأسبوع الذي بقيت فيه قوات الغزو الإسرائيلي في حي رأس بيروت الذي يقع فيه مبنى المركز، تولت وحدة عسكرية إسرائيلية، وبمساعدة مدنيين وخبراء توثيق إسرائيليين، نهب موجوداته، فملأت حمولة شاحنات عسكرية عدة، راحت تنقل معظم موجودات المركز في "قوافل" يومية تتجه مباشرة إلى إسرائيل.

ونتيجة لذلك، انتقلت إلى أيدي الغزاة الإسرائيليين مقتنيات المكتبة من الكتب العربية والعبرية والإنجليزية والفرنسية، ومن ضمنها مئات الكتب النادرة ومئات المراجع المهمة والمخطوطات الثمينة، وكذلك مقتنيات الأرشيف من ملفات وأشرطة ميكروفيلم وكافة التجهيزات المهمة التي يستخدمها المركز في عمله من آلات لتصوير الوثائق وتصنيفها وقراءتها، ومن أجهزة تسجيل وراديو وتلفزيون وآلات طابعة وناسخة ومئات الأشرطة المسجلة كتاريخ شفوي، وأبرزها:

- تسجيلات صوتية مع ضباط فلسطينيين شاركوا في أحداث أيلول ١٩٨٠ في الأردن.
- تسجيلات صوتية مع أعلام الثقافة الوطنية الفلسطينية، وأبرزهم: محمد عزة دروزة، وعجاج نويهض، ومصطفى مراد الدباغ، وأكرم زعيتر، وغيرهم الكثير الكثير.

كما شملت المواد المنهوبة والمنقولة إلى إسرائيل كل ما هو في حالة جيدة من أثاث المركز، بما في ذلك أجهزة الهاتف والتلكس والتجهيزات الكهربائية وطفايات الحريق والكراسي ومفروشات أرض الحجرات والأشياء الشخصية العائدة للعاملين في المركز.

وما بقي عدا ذلك مما لم يمكن نقله، أو مما لم يتوفر الوقت لنقله بسبب اضطرار قوات الغزو للانسحاب سريعاً من بيروت، فقد عبث به الغزاة، فأتلفوا جزءاً منه وأحالوا الجزء الآخر إلى أكوام من الفوضى والقذارة، بهدف الحيلولة دون إمكانية الاستفادة منه.

وقد جرى كل ذلك على مشهد من سكان الحي، وحتى دون أن يلجأ الغزاة الإسرائيليون إلى أي محاولة للتستر على مسؤوليتهم في هذه الجريمة بنسبها لأطراف أخرى، كما كان شأنهم حين حاولوا أن ينسبوا مسؤولية المحاولات السابقة للتعدي على المركز إلى أطراف أخرى.

اشترط الرئيس الراحل، ياسر عرفات، إعادة مكتبة المركز، كجزء من صفقة تبادل الأسرى مع إسرائيل. واستجابت إسرائيل لهذا المطلب.

جرت عملية التبادل في مدينة الجزائر، يوم ١٩٨٣/١١/٢٣، وسبق تلك العملية رسالة وجهها السفير الفلسطيني لإدارة مركز الأبحاث في نيقوسيا، يؤكد خلالها ضرورة وجود مندوب عن المركز، ليقوم بعملية التسلم، والتأكد من المحتويات. لم يرسل المركز مندوباً عنه للتسلم، ولم يكن لدى المركز قائمة بالمحتويات، ذلك أن قوائم كهذه كانت هي الأخرى من المحتويات المنهوبة. وصل إلى مدينة الجزائر زهاء مائة وثلاثة عشر صندوقاً خشبياً، تحوي محتويات المركز، وكانت تلك الصناديق الخشبية بحاجة إلى من يفتحها، ويتأكد من سلامتها ومن كمالها أو نقصانها، لكن ذلك لم يحدث. انتظر ممثلو الصليب الأحمر طويلاً، وأخيراً أخبروا

مكتب المنظمة أنهم مضطرون للسفر بعد أربعة عشر يوماً من بقائهم في مدينة الجزائر، بانتظار تسليم مكتبة المركز ووثائقه، واضطر أخيراً مكتب المنظمة الاستجابة لرغبة الصليب الأحمر، وقام بتسلم المحتويات، بعد التوصل إلى صيغة ترضية، فقام منذر الدجاني، السفير الفلسطيني، بتسلم الصناديق دون ذكر محتوياتها، ووضعت هذه الصناديق في أحد المعسكرات الجزائرية على مقربة من العاصمة الجزائرية، وهو معسكر الخروبة، ومن ثم تم نقلها إلى معسكر تيبسة، حيث تقيم وحدات من جيش التحرير الفلسطيني.

بقيت المكتبة مهملة، ولم يتسلمها أحد، وجاء الشتاء، فتم نقلها من معسكر الخروبة إلى تيبسة.

وصلت رسالة لمدير عام المركز، صبري جريس، من الرئيس عرفات، يطلب فيها ضرورة التحرك لتسلم المكتبة.

سافرت برفقة صبري جريس إلى الجزائر مطلع شهر آذار ١٩٧٦، بوصفي مسؤولاً عن قسم التوثيق، وفي اليوم التالي، سافرت جواً إلى تيبسة، وكنت في غاية الشوق للالتقاء برفاق وإخوة فرقنا عنهم الرحيل عن بيروت وما حدث معنا من أهوال. وصلت إلى المعسكر ظهراً، لتحمل لي كل لحظة مفاجأة دراماتيكية، تبدأ من لحظة الركوب في البواخر، وصولاً لتبدّلات الحياة، وهل يمكن لمن عاش في بيروت طويلاً أن يتلاءم مع حياة صحراوية قاحلة!

تمكنت من الاطلاع، على المكتبة، وفتح بعض الصناديق التي تحتوي على الكتب وقمت بفتح نحو عشرين صندوقاً، جميع الصناديق التي فتحتها سليمة، من الصعب فتح المائة وثلاثة عشر صندوقاً، لكن العشرين صندوقاً قمت بانتقائها لا على التعيين. ووصفت له الصناديق من الداخل، وبعد حديث استغرق زهاء ثلث الساعة، اعتقدت أن جريس قد غادر الهاتف، ناديته: آلو.. آلو، فأجاب: نعم.. نعم، ما هذا الذي تتحدث به؟ قلت: الحقيقة يا صبري، كل ما سمعناه سابقاً كان زيفاً بزيف، المكتبة سليمة يا صبري، قلتها بصوت أجش، بعد أن دهمتني الدموع. صمت برهة وقال: انتظر مني مكالمة هذه الليلة، الله يعطيك العافية، الله يعطيك العافية.

حاولت نقل المكتبة من الجزائر، إلى لارنكا–قبرص بدأت رحلتي في أروقة البيروقراطية الجزائرية المعقدة والمتعبة، وكنت في كل مرة فيها أعتقد أنني قد حققت تقدماً، أكتشف أنني عدت إلى المربع الأول. استمرت دورتي في حلقة مفرغة زهاء الأربعين يوماً، تعرفت خلالها على شؤون الجالية الفلسطينية في الجزائر، همومها وامتداداتها ومشاكلها وما أكثرها، فهناك السفارة، وهناك الملحقية العسكرية، وهناك مكتب "فتح" إلى جانب مكاتب المنظمات الفدائية الأخرى، هناك ما يشبه حرب الكل ضد الكل. وخلال فترة إقامتي تلك، سمعت من مصادر متعددة رواية تقول: إن عضو المكتب السياسي مسؤول الأمانة العامة لحزب جبهة التحرير الجزائرية شريف مساعديه كان قد التقى السفير الفلسطيني، وعرض عليه مبنى من سبعة طوابق في العاصمة الجزائرية، كتقدمة من الحزب، كي تنقل المكتبة إليه، ويفتح المركز في الجزائر، وذلك إنقاذاً للمكتبة والأرشيف والوثائق.

وكان المبنى المعروض مجهزاً تجهيزاً كاملاً، لاقت هذه الفكرة قبولاً لدى السفير، وقام بعرضها على الرئيس ياسر عرفات، لكن عرفات طلب منه التريث! أكد لي هذه الرواية، وبعد سنوات من ذلك، المستشار الأول في السفارة عيسى عبد الحفيظ، كما سبق أن أخبرني الملحق العسكري في الجزائر عوني سمارة وأنا في الجزائر بتلك الرواية، مؤكداً أن السفارة في اعتقاده لن تساعد في تسهيل مهام شحن المكتبة خارج الجزائر.

أخبرت عبر الهاتف المدير العام صبري جريس بما وصلت إليه جهودي، واقترحت عليه كتاب تقرير تفصيلي وتسليمه للرئيس عرفات باليد. تشجع جريس لهذه الفكرة، وهذا ما كان، كتبت تقريراً تفصيلياً يبدأ من لحظة تكليفنا شحن المكتبة إلى قبرص وحتى الوصول إلى طريق مسدود. وكان هذا التقرير يقع في حدود أربعين صفحة مطبوعة. سافرت إلى تونس، والتقيت الرئيس وشرحت له ما حدث. وأكدت له أن المكتبة لا تزال بحالة سليمة، وسألني: إذاً ما الذي يصلني من معلومات حول تلف بعضها؟!

قلت: لا أدري، هذا ما شاهدته بأم عيني.

صمت برهة وقال: سأرسل تعليماتي إلى قبرص.

تناولت الغداء مع الرئيس، وبرفقة العاملين والعاملات من التوانسة، وبعدها استودعته وسافرت إلى قبرص.

فوجئت بعد بضعة أيام من ذلك برسالة "فاكس" من الرئيس تطلب من المدير العام جريس السفر إلى القاهرة، وعرض المكتبة كهدية لـ الأهرام! سافر جريس وعرض الهدية، لكنها رفضت! جاء ذلك في سياق تعثر فتح المركز في القاهرة، من جهة، وإلحاح السفارة الفلسطينية في الجزائر على فتحه في العاصمة الجزائرية، وصعوبة شحن مكتبة وإخراجها من الجزائر. بعد تلك الأجواء، تقدم د. محجوب عمر، وهو مناضل مصري في صفوف الثورة الفلسطينية منذ بداياتها، باقتراح مكتوب مفاده: تجهيز معدات تصوير في الجزائر، تقوم بمهمة تصوير المكتبة والوثائق على مصغرات مايكروفيلم ومايكروفيش، خوفاً من تلفها مستقبلاً. وتضمن هذا التصوير تفصيلات تتعلق بعدد العاملين، وبجداول زمنية، وموازنات مالية، وغير ذلك. تقدم محجوب باقتراحه هذا للرئيس عرفات، وقام عرفات بتحويله لمركز الأبحاث. درسناه ووافقنا عليه، وأوصينا بتنفيذه، ولم نسمع شيئاً بخصوصه بعد ذلك!

بعد الغارة الإسرائيلية على المقرات القيادية لـ م.ت.ف في حمام الشط– تونس– نقل الجزائريون المكتبة من تيبسة، إلى معسكر آخر في قلب الصحراء. معسكر البيض تم تخزين المكتبة في مهاجع غير ملائمة.

لم تحظَ المكتبة بأي اهتمام جدي، ولم تتوافر أدنى الشروط اللازمة للتخزين، فبدأ التلف يفعل أفاعيله بها، إضافة إلى أفاعيل القوارض، ومن بعدهم البشر.

تلاشت المكتبة والوثائق والأرشيف شيئاً فشيئاً، وأصبحت أثراً بعد عين، وسط صمت مريع، لا أعرف سببه الحقيقي، لكني أدعو إلى إعادة دراسة هويتنا الوطنية والثقافية على حد سواء.

في العام ٢٠٠٥، قررت أن أنشر ما شهدته، وعايشته في مركز الأبحاث وما آلت إليه الأمور من مصير مأساوي، فعرضت الحقائق في منتدى الفكر العربي في عمان، وذلك عبر ندوة دعت إليها هيئة أرض فلسطين التي يديرها الباحث سلمان أبو ستة. ثم قمت بنشرها في كراس، حمل عنوان: المصير المأساوي لمركز الأبحاث.

لم يلاقِ نشر هذا الكراس ترحيباً من الأوساط الرسمية في م.ت.ف، بل برز منَ شكك في معلوماته، في وقتٍ آثر فيه بعض العارفين من العاملين

في المركز الصمت ... ثبت فيما بعد، بأن ما ورد في شهادتي حول المركز، كانت دقيقة وصادقة.

تبدد المركز وتوفي، قبل وفاة مؤسسة د. أنيس صايغ رحمه الله وطيب ثراه.

يبقى أن نقول، إن ما أصاب المركز من تبديد وضياع وتوقف نشاطاته ورسالته، لا يمنع من إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وهو أعداد **شؤون فلسطينية**، التي تضمن خيرة إنتاج المثقفين الفلسطينيين على مدى سنوات تأسيسها، وكذلك ملفات اليوميات الفلسطينية، كتاريخ، جار، ومعظم الكتب المنشورة من المركز. كل ذلك نتمكن من تحويله إلى "ديسكًات" الحاسوب، أو إنشاء موقع يحمل اسم المركز، ويتضمن كل تلك المنشورات.

الدكتور أنيس صايغ حالة جميلة في الثّقافة الفلسطينيّة

عبد الحفيظ محارب

الدكتور أنيس صايغ حالة جميلة في الثّقافة الفلسطينيّة

عبد الحفيظ محارب*

في العام ١٩٧٠، عقب أحداث أيلول في الأردن، التقيت للمرة الأولى بالدكتور أنيس الصايغ. وتم أثناء هذا اللقاء التحاقي بمركز الأبحاث الفلسطيني التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية.

من المعروف أن مركز الأبحاث تأسس مع إنشاء م.ت.ف التي تشكلت من جناحين أساسيين: جيش التحرير الفلسطيني، ومركز الأبحاث الفلسطيني. وقد قدّر لي أن أكون ضمن مجموعة من المركز برئاسة الدكتور أنيس الصايغ، قامت بزيارة الرئيس الأول لمنظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيري في بيته الكائن في سوق الغرب في لبنان، وأشاهد استشراقة ملامح وجهه، عندما تناول في حديثه هذين الجناحين، حيث وصفهما بالسيف والقلم.

من بين الأمور التي أسفرت عنها أحداث أيلول في الأردن، انتقال م.ت.ف، بمختلف فصائلها إلى الساحة اللبنانية، ما ساهم في تمركز النضال الوطني الفلسطيني في تلك الساحة، وتمهيد الطريق أمام المراكز الفلسطينية القائمة هناك لدخول طور من النموٍ السريع، إذ لم تمضِ سنوات معدودة، حتى غدت هذه المراكز صروحاً ثقافية مضيئة، وبلغَت أوجها في العطاء خلال سني السبعينيات من القرن الماضي. ولا شك في أن هذا الأوج الذي بلغته الثقافة الفلسطينية في مختلف المجالات، يعود إلى إسهامات العديد من المثقفين الفلسطينيين والعرب، وعلى رأس هؤلاء

---

* كاتب وباحث مقيم في رام الله

الدكتور أنيس الصايغ.

لقد وقفت وراء حالة ازدهار الثقافة الفلسطينية ونموها السريع، عوامل عدة، أهمها:

١- المناخ النضالي الوطني الذي كان سائداً حينذاك.
٢- الرغبة في الوقوف على أسباب وعوامل الهزيمة التي لحقت بالأمة العربية في العام ١٩٦٧.
٣- واقع كون بيروت كانت تشكل ملجأً للكثيرين من المثقفين العرب، فضلاً عن الإرث الثقافي الذي تحتضنه وتختزنه.

لذا، لم يكن غريباً أن تنمو فيها وتتعزز في تلك الفترة مراكز فلسطينية، وعلى رأسها مركز الأبحاث برئاسة الدكتور أنيس الصايغ.

وهذه المراكز هي:
١- مركز الأبحاث الفلسطيني.
٢- مركز التخطيط الفلسطيني.
٣- مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

يتشكل مركز الأبحاث من أقسام عدة، أهمها:
١- القسم الإسرائيلي: من أوائل من عمل به؛ أحمد خليفة، هاني الهندي، حبيب قهوجي، صادق العظم، محمود درويش، عبد الحفيظ محارب. حظي القسم بمكتبة غنية بالمواد المكتوبة باللغة العبرية؛ تشتمل على المراجع الأساسية للحركة الصهيونية، وتغطي فترة اليشوف اليهودي، وكذلك إسرائيل بمختلف جوانبها. كما تشتمل أيضاً على الصحافة الإسرائيلية اليومية والدوريات الإسرائيلية، إلى جانب محاضر جلسات الكنيست، ومحاضر المؤتمرات الصهيونية.
٢- القسم الفلسطيني: من أوائل من عملوا فيه؛ بلال الحسن، خليل الهندي، جميل هلال.
٣- القسم العسكري: من بين صفوفه هيثم الأيوبي ومحمود عزمي.
٤- القسم الدولي برئاسة داوود تلحمي.
٥- المكتبة: حظيت بعناية خاصة من قبل الدكتور أنيس الصايغ، الذي كان

يبدي حرصاً على تزويدها، بأي كتاب وبأية لغة، يتطرق إلى القضية الفلسطينية. وأتذكر أنه اقتنى للمكتبة كتباً باللغة اليابانية.

٦- قسم الأرشيف: وصل هذا القسم درجة من التقدم، مكنته من تلبية حاجة الباحثين والعاملين في مختلف وسائل الإعلام. ومن بين الوثائق التي احتواها، أوراق ومذكرات تنطوي على جانب كبير من الأهمية، مثل أوراق عارف العارف، والحاج أمين الحسيني، وفوزي القاوقجي.

شؤون فلسطينية: عند أوائل السبعينيات قطع مركز الأبحاث شوطاً متقدماً في مجال البحث، وطرأت زيادة ملموسة في عدد الباحثين، وغدت الحاجة ملحة لإصدار مجلة شهرية؛ ففي العام ١٩٧١، أصدر المركز مجلة **شؤون فلسطينية**، وحظيت منذ صدورها، بتنافس الصحافة العربية في مختلف البلدان العربية، في تناول ما تتضمن من دراسات، ونشر ما تراه مناسباً.

تشكلت هيئة التحرير من: إبراهيم أبو لغد، بلال الحسن، أحمد خليفة، الحكم دروزة، نبيل شعث، صادق العظم، ناجي علوش، حبيب قهوجي، عبد الحفيظ محارب، هاني الهندي، فضلاً عن إبراهيم العابد، والدكتور أنيس الصايغ الذي يشغل رئاسة التحرير. وقد أضيف مع مرور الوقت إلى هيئة التحرير كُتّاب جدد.

تضمنت **شؤون فلسطينية** أبحاثاً وتقارير ووثائق وباباً ثابتاً يسمى "شهريات" يغطي القضية الفلسطينية بمختلف أبعادها؛ دولياً صادق العظم، عربياً ناجي علوش، مقاومة بلال الحسن، إسرائيلياً أحمد خليفة، مناطق محتلة عبد الحفيظ محارب.

كان الدكتور أنيس الصايغ، بحكم رئاسته لهيئة التحرير، يقرأ محتويات المجلة قبل صدورها. وقد مثلت **شؤون فلسطينية** عصب المركز وروحه، واحتلت مكاناً مرموقاً لها لدى الدكتور أنيس الصايغ.

إلى جانب ذلك، كان مركز الأبحاث ينشط تحت إدارة الدكتور أنيس في مجالات متعددة، من بينها:

١- استقبال الضيوف والزوار، وبخاصة من الوسطين الثقافي والسياسي.

وربما يكون من النادر أن يأتي مثقف عربي أو أجنبي لزيارة بيروت دون زيارة مركز الأبحاث. ومن بين هؤلاء على سبيل المثال محمد حسنين هيكل، بطرس غالي، عارف العارف، جلال الطالباني، والكاتب الفرنسي العالمي جان جونيه. والصحافي البريطاني ديفد هيرست الذي كان يتردد على المركز في أوقات متقاربة.

٢- عقد ندوات سياسية ذات شقين:

- ندوات يقوم بها قادة فصائل، وبخاصة عندما تمر القضية الفلسطينية في أوضاع صعبة.
- ندوات سياسية فكرية نقدية لمحاضرين فلسطينيين وعرب. ومن بين هؤلاء هشام شرابي، وإلياس مرقص، وياسين الحافظ. وبرز من بين المسؤولين الفلسطينيين في هذه الندوات، بشكل خاص، كمال عدوان. هذا فضلاً عن الزيارات المفاجئة التي يقوم بها الرئيس ياسر عرفات للمركز، بين الحين والآخر، لوضع أعضاء المركز في صورة الأحداث الجارية.

إلى جانب مركز الأبحاث هنالك مؤسستان فلسطينيتان ساهمتا بالنهوض في مجال البحث الفلسطيني، هما مركز التخطيط الفلسطيني التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، ومؤسسة الدراسات الفلسطينية.

ضم مركز التخطيط برئاسة الدكتور نبيل شعث، نخبة من الكتاب والباحثين، من بينهم منير شفيق الذي غدا فيما بعد رئيساً للمركز، وميشيل كامل، ومحجوب عمر، وطاهر عبد الحكيم، وسعيد حمود.

كان دور مركز التخطيط متابعة الأحداث الجارية، وتقديم توصيات للقيادة الفلسطينية بشأنها، من خلال نشرة دورية، وربما تكون النشرة التي أصدرها المركز قبل أسبوع من عملية فردان في العام ١٩٧٣ التي راح ضحيتها القادة الفلسطينيون الثلاثة؛ أبو يوسف النجار، كمال عدوان، وكمال ناصر، والتي احتوت على سيناريو العملية قبل حدوثها، خير مؤشر على ما وصلت إليه قراءة كادر مركز التخطيط من دقة وصواب.

إلى جانب مركزي الأبحاث والتخطيط، هنالك مؤسسة الدراسات الفلسطينية برئاسة الدكتور وليد الخالدي، ويساعده في إدارتها الدكتور قسطنطين زريق. وساهمت هي الأخرى بالارتقاء في عملية البحث في

موضوعة الصراع العربي الإسرائيلي.

كان من نتيجة قيام هذه المراكز وتنافسها الإيجابي، أن طرأت قفزة في الوعي الفلسطيني تجاه مختلف جوانب القضية الفلسطينية وأبعادها. ولعل وقفة على شهادة يهوشفاط هركابي الذي سبق له أن شغل منصب رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية عند أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، فيها ما يشير إلى مدى ما وصل إليه الفهم الفلسطيني من تقدم وإحاطة بموضوع الصراع العربي الإسرائيلي بمختلف جوانبه؛ فعند أواسط السبعينيات من القرن الماضي نشرت صحيفة **هآرتس** خمس حلقات حول مدى ما وصل إليه العالم العربي من فهم تجاه إسرائيل. وقد تطرقت الحلقات الثلاث الأولى حول مراكز البحث في الدول العربية، وبخاصة في مصر وسوريا والعراق. ووصلت إلى استنتاج يشير إلى حدوث تقدم نسبي في المستوى المعرفي. وفي الحلقتين الأخيرتين تركز الحديث عن مدى ما وصل إليه الفلسطينيون، من خلال مؤسساتهم البحثية من معرفة في مختلف جوانب الصراع. وقد وردت في الحلقة الأخيرة شهادة يهوشفاط هركابي التي ذكر فيها: "لقد قطع الفلسطينيون شوطاً بعيداً في فهم إسرائيل، لدرجة أنني أنا يهوشفاط هركابي، عندما أريد أن أعرف شيئاً عن إسرائيل، ألجأ إلى كتب مركز الأبحاث الفلسطيني".

لقد استوقفت هذه الشهادة الدكتور أنيس الصايغ، وما زلت أتذكر جيداً التساؤل الذي طرحه والبسمة ترتسم على وجهه: ما الذي يريدونه من وراء ذلك.

شكل الدكتور أنيس الصايغ حالة جميلة في الثقافة الفلسطينية. فقد أحب عمله، واستبد به حبه لمركز الأبحاث. كان يسكن في منزل متواضع لا يبعد كثيراً عن المركز. وقد اعتاد الوصول إلى مكتبه قبلنا جميعاً سيراً على الأقدام دون سيارة أو حراسة. يصل في الساعة الثامنة إلا خمس دقائق، ويغادر في الساعة الثانية وخمس دقائق، بعد أن نكون جميعاً قد غادرنا المركز، ليلتحق بزوجته السيدة هيلدا، وهي زميلتنا في العمل، سيراً على الأقدام ودون حراسة.

مذكرات أنيس صايغ
تكامل المثقف الوطني في زمن ممزّق

فيصل درّاج

مذكرات أنيس صايغ
تكامل المثقف الوطني في زمن ممزّق

فيصل درّاج*

أصدر الدكتور أنيس صايغ ، سيرته الذاتية في كتاب عنوانه: **أنيس صايغ عن أنيس صايغ****، يتجاوز خمسمائة صفحة، يذيع فيه ذكريات متعددة، تمتد من نهاية العقد الرابع من القرن الماضي إلى مطلع الألفية الثالثة. يحمل العنوان، للوهلة الأولى، مسحة ساخرة، توحي بأنّ الكاتب حريص على تسجيل سيرته، وأنّ حرصه دفعه إلى إنجاز عمل ضروري، كان ينبغي أن يقوم به غيره،·لكن ما يبدو ساخراً لا يلبث أن ينقشع سريعاً، إذا عرف القارئ أنّ صاحب السيرة الذاتية مؤرخ، وأنّه مؤرخ وطني فلسطيني التبست حياته، خلال خمسة عقود، بالقضية الفلسطينية، بما جعل منه عدواً للصهيونية، وجعلها عدوة له. وضع المؤلف، بهذا المعنى، كتاباً عن التاريخ الفلسطيني في شكل سيرة ذاتية، أو سطّر سيرة ذاتية هي بحث في تاريخ فلسطيني تكون سيرة صايغ، في الحالين، سيرة القضية الفلسطينية، فقد عرفها أكثر من غيرها، أو سيرة البحث الثقافي عن سقوط فلسطين وانبعاثها.

تطرح سيرة صايغ سؤال التاريخ الوطني الفلسطيني، الذي هو مواجهة، عمرها مائة عام، بين الحق الفلسطيني والظلم الصهيوني، والسؤال، بالمعنى الذي يقصده المؤرخون، ليس جديداً على الإطلاق، فقد عالجه كثيرون، مثل

---

* كاتب وباحث مقيم في عمان.

** دار الريس، بيروت، ٢٠٠٦.

عبد الرحمن الكيالي، وناجي علوش، وماهر الشريف. ومع ذلك، فإنّ هناك سؤالاً لازماً لا يمكن التخفف منه، هو التالي: كيف يتعيّن التاريخ، وهو جملة علاقات موضوعية لا موقع فيها للأفراد، في سيرة ذاتية تنطق باسم "الأنا" بل باسم "أنا" متميزة، لا يعوزها أبداً الرضا الذاتي؟

يوزّع السؤال السابق، وهو سؤال صحيح، السيرة الذاتية على نصين متداخلين: يحيل أحدهما على وجوه القضية الفلسطينية التي عاشها صاحب السيرة، ويحيل ثانيهما على الطريقة التي

عاشها بها، أو، بشكل أدق، على الوعي الذي عايش به قضيته الوطنية. ينقسم الكاتب، والحالة هذه، إلى علاقتين: الفلسطيني–الشاهد، الذي يتذكّر هجرة عائلته من طبريا إلى لبنان، ويستذكر مدينة الطفولة التي لا يعدلها بغيرها، ويتذكّر، لاحقاً، لقاءاته بشخصيات فلسطينية تاريخية، مثل أحمد الشقيري، وياسر عرفات، وغيرهما، وهو إلى جانب ذلك: الفلسطيني–المؤرخ، الذي أحسن معرفة المنهج وتصنيف المعلومات واستشارة الوثائق. يتداخل المؤرخ والشاهد دون أن يتوحّدا، لأنّ بين المفاهيم التاريخية الباردة والعواطف الإنسانية المتوالدة مسافة أكيدة، لكن صايغ، الذي لا يضيف "المتخيّل" إلى الوثيقة التاريخية، يجعل من العواطف عنصر إيضاح وإضاءة، مؤنسناً التاريخ، إن صح القول، وملغياً المسافة بين القارئ والمؤرخ، والمقصود بذلك هو: الصدق، ذلك أنّ صايغ الذي جاوز السبعين، أوكل إلى سيرته وظيفة أساسية: الوفاء الذي لا يتزعزع لفلسطين، كما عاشتها طفولته، ذات مرّة، وكما يتصوّرها الواجب الأخلاقي–الوطني، الذي يرى الفلسطيني الحقيقي في التمسّك الإيماني بفلسطين، كما كانت وكما ستكون.

وواقع الأمر أنّ سيرة صايغ، التي كتبت بصيغة "الأنا"، سيرة فلسطينية ومن أجل فلسطين، بل إنّ سيرة هذه "الأنا"، مشتقة من فلسطين، حقيقة كانت أو مرغوبة، كما لو كانت، بالمعنى الجمالي، مرآة لحق مقدّس وآية على أرض مقدّسة، مشى فوق دروبها السيد المسيح، ذات مرّة، ومهما تكن حدود الجمالي الرمزي في القضية الفلسطينية، فمن المحقق أنّ فلسطين في سيرة صايغ هي الهوية، التي يزاملها وعي يؤمن بالحق، ويؤمن بأنّ الحق، الواجبة عودته، جميل، وبأنّ الفلسطيني الذي لا يعرف الجمال غريب عن الحق وفلسطين في آن.

اتّكاءً على هذا المنظور، الذي يوحّد بين المؤرخ والشاهد والمثقف الملتزم، يكتب صايغ التاريخ الفلسطيني الحديث، متطلّعاً إلى قارئ يؤمن بالحقيقة قبل أن يؤمن بالقتال، ويؤمن أنّ صورة فلسطين من صورة المقاتلين لأجلها لا غرابة، في منظور كهذا، أن يفصل صايغ بين الجمال والقبح فصلاً باتراً، وأن يساوي فلسطين بالنزاهة والمعرفة والاجتهاد والانضباط، وأن يساوي بين "الفلسطينيين الزائفين" والجهل والخديعة والكذب والرخاوة الأخلاقية والمعنوية، ربما تكون طبريا، التي ولد فيها صايغ العام ١٩٣١، وكما جاءت على قلمه، صورة من فلسطين الغائبة– الحاضرة، حيث جمال طبريا، كما تحفظه الذاكرة، هو الجمال بعينه، أو هو الجمال المتحقق في شكل مكان. ينطوي الإعلان عن هذا الجمال على بعدين: الردّ على الخطاب الصهيوني الذي يساوي بين العرب والتخلّف، والأمل وتحريض الفلسطيني على أن تكون له صورة من صورة وطنه. يكون صايغ، في البعد الأول، مؤرخاً مدهشاً، يصف البشر في دقائق حياتهم اليومية، عادات وسلوكاً ومهناً، ويصف المكان بتفصيل يثير الإعجاب. ويكون، في البعد الثاني، شاهداً محرضاً، أي فلسطينياً مغترباً ومتمرّداً في آن، يشدّه اغترابه إلى مكن طال حنينه إليه، ويدفعه تمرّده إلى نقض المشروع الصهيوني نقضاً كاملاً. متى يظهر المؤرخ؟ ومتى يزيح الشاهد المؤرخ عن موضعه قليلاً أو كثيراً؟ هذا سؤال يطرحه "أهل الاختصاص"، ولا يطرحه أنيس صايغ على الإطلاق، لأنّ سيرته الذاتية لا تستقيم إلاّ بهذين العنصرين معاً، اللذين يمثّلان العقل والعاطفة، أو العاطفة المتعقلة المبثوثة في صفحات السيرة كلها.

يمثّل الفصل الثاني من السيرة، الممتد إلى ثلاثين صفحة، نموذج كتابة: "العاطفة المتعقلة"، بلغة معينة، أو نموذج تكامل المؤرخ والشاهد، بلغة أخرى.أعطى أنيس للفصل عنواناً مزدوجاً، يشير إلى الموضوع ودلالة الموضوع الروحية: في مسقط الرأس –الفردوس الذي اجتاحه الأشرار وتنازل عنه السماسرة–.فصلٌ نموذجي في الكتابة العامية، التي تجمع بين ذاكرة يقظة ومنهج يلتقط الوقائع الكبيرة وتفاصيل الحياة اليومية، محاذراً الوقوع في الخطأ أو السقوط في الشرود. لا يجد قارئ السير الذاتية العربية، ربما، شيئاً نظيراً إلاّ في سيرة المصري الراحل لويس عوض: **أوراق العمر**، حيث السيرة الذاتية سيرة للمكان والزمان والمجتمع والتاريخ، فقد مرّ د. صايغ على تاريخ طبريا، منذ قديم الزمان

إلى عالم الخروج، وعيّن جغرافيتها، والمشاهد التي تنفتح عليها والقرى المحيطة بها، ووصف مرافق البلدة، مثل المدرسة والعيادة الطبية والمقهى وأمكنة العبادة، متوقفاً أمام البشر، في سيمائهم الشكلية والمعنوية، كما لو كان روائياً نبيهاً، يشتق العيون من الأرواح، وما عنوان الفصل، الذي يبدأ بكلمة "الفردوس"، إلاّ ترجمة لتفاصيل المكان، كما هو في الواقع، ربما، أو كما عاشه صاحب السيرة، ولا يزال يعيشه حتّى اليوم، ولهذا يكتب: "أما طبريا فتبقى سيدة المدائن وعميدة الأمصار، هي الأساس والقاعدة، وهي مآل الأحلام والتطلّعات"... إلى أن يقول: "أنا طبراني لا غشّ فيه"، مؤكداً أنّ تعدّد المدن، التي عاش فيها بعد اللجوء، لم يغيّر معنى طبريا لديه في شيء. يتجلّى في عنوان الفصل الثاني، الذي يجمع بين الفردوس والأشرار والسماسرة، منظور المؤرخ الذي يضع الذات الكاتبة ومكان المولد في حيّز، ويضع في الحيّز النقيض الأشرار والسماسرة، معتبراً، ضمناً، أنّ من "يسمسر" على فلسطين لا يختلف عن العدو الذي اجتاحها. يشكّل هذا الفصل، بقدر أو بآخر، مرجعاً للفصل الذي سبقه وللفصول التي تليه، ذلك أنّ "سيدة المدائن" تظل حاضرة في الكتاب بإيقاع متواتر، بعيد عن التشوّش والاضطراب.

مثل كل سيرة ذاتية أخرى، تأخذ سيرة د. صايغ بالزمن التعاقبي، الذي يبدأ من لحظة الاستهلال، إذا أمكن، وصولاً إلى مدارج الصبا والحكمة الباقية في "الذاكرة الباقية". يسبق "مسقط الرأس"، حيث طبريا سيدة الحكاية، فصل في ستين صفحة عنوانه "في المنبت"، يتحدّث عن الأب والأم والأخوة، ويتحدّث فيها، أو معها، عن القيم، التي أنجبت عائلة مغايرة، تحترم الوقت، وتقدّس النظام، وتجتهد وراء المعرفة، وترتبط بين المعرفة والمصلحة الوطنية، وترى المصلحة الأولى في نصرة الحق وعدم خذلان الحقيقة. لا غرابة أن يتحدّث صاحب السيرة، بشيء من الفخار المشروع، عن أخوته الخمسة، الذين أكملوا جميعاً دراساتهم العالية، وأصبحوا أعلاماً في ميادين اختصاصهم، وهو ما يلمسه القارئ في عنوان الفصل الثالث: "في الدرس والتدريس": "لا عجب فهو ابن أبيه وأمّه وأخو أخوته". وقد يبدو في العنوان، الذي لا يخترع شيئاً، شيء من التمجّد، بالمعنى الذي ذهب إليه عبد الرحمن الكواكبي، لكن من يعرف د. أنيس صايغ عن قرب يدرك، مباشرة، أنّ المقصود شيء آخر، فهذا المثقف، الذي ينتمي إلى عائلة مسيحية متسامحة، قصد في

"تمجّده" أمراً قوامه: وجوب أن يكون الإنسان كما يجب أن يكون، اتكاء على حسن تصرّف بالعقل والإرادة، وامتثالاً لمسؤولية الإنسان الأخلاقية التي تصبح، في الشرط الفلسطيني، مسؤولية وطنية، ولعلّ في عناوين الفصول اللاحقة ما يعلن عمّا ترجمه الكاتب في حياته العملية، منذ أن جاء لبنان طالباً، ووصل إلى جامعة كامبردج منتهياً، دون أن ينتهي، إلى تكريس إمكانياته الشخصية والعلمية لصالح الشأن الفلسطيني، كأن نقرأ في هذه العناوين: "في الدرس والتدريس، في الكتابة والتأليف والنشر، في مركز الأبحاث والموسوعة الفلسطينية، في العلاقات مع السيد ياسر عرفات، في الحرب، في المدن وحكاياتها، في التقاعد".

تشير عناوين الفصول، ببساطة، إلى ثلاث مقولات: المثقف المحترف، المثقف الوطني النقدي، المثقف الحديث. وقد يبدو في اقتراح هذه المقولات تزيّداً وافتعالاً، ذلك أنّ مفهوم المثقف، نظرياً، ينطوي على النقد والمسؤولية والحداثة. لكن حالة د. صايغ، التي لا تشبه غيرها، كما الوضع الفلسطيني الثقافي–السياسي، الذي لا يرحّب كثيراً بحالة لا تحاكي غيرها، يعطي الاقتراح شرعيته.٠ لم يشأ أنيس صايغ، منذ سن مبكرة، أن يكون "المثقف المهني"، بلغة إدوارد سعيد، أي ذاك الذي يساوي بين الثقافة والحصول على أجر معلوم، بل شاء أن ينصبّ الثقافة منظوراً ومنهجاً في الحياة، منتقلاً من قراءة إلى أخرى، ومن حقل ثقافي إلى آخر، كأن يدرس العلوم السياسية ويضيف إليها علم التاريخ، ثم يضيف إلى الطرفين "علم الإدارة الثقافية".٠ ولعلّ هذا الفضول المعرفي، الذي لم ينفصل يوماً عن هواجس وطنية، هو ما حدّد الثقافة عنده أداة نقد وإصلاح، تصلح المجتمع بعد أن تصلح الوعي، وتصلح السياسة حين تعثر على مسؤول يؤمن بالثقافة والإصلاح، وهذه العروة الوثقى بين وظيفة الثقافة والإصلاح حملت أوساطاً سياسية فلسطينية على السخرية من "ابن كامبردج"، كما لو كان في تحصيل المعرفة ما لا يتفق مع شعارات "التحرير الشامل".

الدرس والتدريس والكتابة والنشر والترجمة والأبحاث والمجلة والموسوعة، هذه هي عناصر الثقافة–الحياة عند أنيس صايغ. تفصّل هذه العناصر، على مستوى المنظور، بين التعليم ومحو الأميّة، وبين التعليم وعادات الفكر الساكنة، وفيها ما يفصل، أيضاً، بين المثقف المختص، الذي يرى حياته في اختصاصه، ويرى اختصاصه بمعزل عن حياة الآخرين،

و"المثقف الهاوي"، بلغة إدوارد سعيد، الذي يصوغ أسئلة الثقافة من وجهة تحرّر الإنسان.٠ ولهذا، كان عادياً أن يكتب أنيس صايغ مقالاً نقدياً "قاسياً عن التخاذل العربي بعد نكبة ١٩٤٨"، وهو لا يزال "طالباً في مدرسة ثانوية ولم يدخل الجامعة بعد"، وأن يكتب لاحقاً كتباً من وجهة نظر التحرّر الفلسطيني والعربي، كأن يكتب، في مطلع شبابه، عن "لبنان الطائفي": "وقد هالني تغلغل التعصّب الطائفي والمذهبي في لبنان، أنا القادم من فلسطين، حيث لا نعرف للطائفية معنى" (ص: ١٧١)، أو أن يستعيد أطياف الدولة العربية القوية في كتابه الثاني: **الأسطول الحربي الأموي في البحر الأبيض المتوسط**، وصولاً إلى **الفكرة العربية في مصر، وتطوّر المفهوم القومي عند العرب**، الذي "كان في الأساس رداً على مزاعم الصهيوني البريطاني برنارد لويس الذي ينكر القومية العربية، وينظر إلى العرب كمجموعة من الأمم غير المتجانسة".٠ ينطلق المثقف في هذه الكتب وغيرها من العلاقة بين الكتابة والسياق، أو من وحدة الكتابة العارفة والسياق الوطني، بعيداً عن آخرين يرون سلامة الاختصاص في نسيان السياق والتوزّع على أزمنة مغايرة.

تنتهي هذه المقدّمات إلى موضوع أساس، يشكّل قوام السيرة ومبرّر وجودها، وهو: المثقف الفلسطيني النقدي، الذي يرى في الثقافة، أي في الوعي السليم، مدخلاً إلى سياسة وطنية، توحّد بين الوطن والمعرفة، وبين الجهل وتداعي القضية الوطنية. وواقع الأمر، أنّ أنيس ينشر في كتابه معنى المعرفة معتقداً، ضمناً، أنّ الأخلاق الفاضلة تفضي إلى دروب المعرفة، وأنّ المعرفة العالية وحدها لا تعترف، لزوماً، بفضائل الأخلاق. وواقع الأمر أيضاً، أنّ أنيس ينشر "حكاية المثقف المغترب" داخل تجربة سياسية فلسطينية واسعة، ارتضت بشكل معيّن من "أشباه المثقفين" وارتضت أكثر بـ "تشاطر يومي"، لا يحتاج إلى الثقافة والمثقفين والمفقود، في الحالين، وكما يؤكّد أنيس في صفحات طويلة، هو دور المعرفة العلمية في تصويب السياسة الوطنية، ودور النقد في تصويب المعرفة والسياسة معاً. والمفقود، بداهة، هو السياسة في ذاتها، ذلك أنّ سياسة متشاطرة، تبدأ مع النهار وتغيب مع غيابه، ليست من السياسة في شيء، وأنّ سياسة يخترعها متشاطر وحيد، تفضي إلى الخيبة. في سياسة كهذه، تتداعى وحدة المعرفة والأخلاق، وتتداعى أكثر السياسة الأخلاقية، التي تنقض سياسة المصالح الضيّقة.

في تقديمه للمجلّد الرابع لأعمال غسان كنفاني الكاملة، حين كان مركز الأبحاث قائماً، وكان صايغ قائماً على شؤونه، أنهى الأخير تقديمه بشعار: "اعرف عدوك"، الذي هو الوجه الآخر لشعار: "اعرفْ نفسك"، الذي قال به سقراط منذ زمن طويل.٠ وهذا الشعار هو الذي أقام عليه المؤرخ– الشاهد مركز الأبحاث، وجعل منه المحاولة العربية الوحيدة المتماسكة، التي عرّفت، بشكل غير مسبوق، بتاريخ الفكر الصهيوني وبنية المجتمع الإسرائيلي، في مستوياته كلّها. ولعلّ سرده الطويل، حوالي سبعين صفحة، لعمله في المركز مديراً ومقترحاً ومنظّماً، ولإشرافه على مجلة **شؤون فلسطينية**، محرّراً ومدققاً ومتابعاً للتوزيع، يجعل من المركز والمجلة سيرة ثقافية–روحية للدكتور أنيس صايغ، تقترب من الفرادة.٠ كان يعمل بروحه قبل أن يعطي العمل ما يحتاجه من دقة ونظام وأناة.٠ لا عجب أن يحاول صايغ ترجمة شعار "اعرفْ نفسك"، الذي يكمل "اعرف عدوك"، بـ "الموسوعة الفلسطينية"، التي عمل فيها، بعد أن استقال من مركز الأبحاث العام ١٩٧٧.

إذا كان في مركز الأبحاث والموسوعة الفلسطينية ما يمثّل سيرة ثقافية– روحية لأنيس صايغ، فإنّ فيهما ما يمثّل سيرة لشكل من القيادة الفلسطينية لا تميل إلى صايغ ولا تحتفي بما يقوم به.٠ والأمر واضح وبسيط في وضوحه، ذلك أنّ القبول بالمعرفة يفترض مرجعاً سياسياً يعترف بحاجته إلى المعرفة ويقبل بتكامل العمل الوطني، بعيداً عن تمركز مرضي حول الذات وعن أوهام ذاتية، تساوي الفرد المتسلّط بالوطن واللغة الركيكة بوقائع المعرفة العلمية، بل إنّه يفترض عقلية حديثة، تعرف ما تحاربه، ولا تكتفي ببلاغة شعبوية تقول بأشياء كثيرة لا تدرك، في كثرتها، أنّ تحرير الوطن يبدأ من إنسان متحرّر، وأنّ مسؤولاً مستبداً في الشؤون الصغيرة والكبيرة ينجز ما يشاء، دون أن يقترب من "التحرّر الوطني".٠ يقول أنيس وهو يتذكّر ترددّه في العمل في الموسوعة: "اعتذرت في بادئ الأمر، إذ كانت تجربتي مع منظمة التحرير لا تشجّعني على المشاركة في مشروع خشيت أن يكون للمنظمة علاقة به، أو أن تتسلل إليه من باب خلفي" (ص: ٢٦١). يتضمن القول، مأساة مزدوجة: مأساة تحيل على أوساط نافذة لم يلمس منها المؤرخ إلاّ العبث وإفساد الضمائر، ومأساة أخرى عن صورة المؤرخ المستنير لدى أوساط إدارية كارهة للاستنارة. ترسم هذه المأساة، في وجهيها، معالم "المثقف المغترب"، أي العارف

الوطني المرفوض من قيادة أوكل إليها العمل الوطني، أو ملامح "المثقف غير المرغوب به"، لأنّ المثقف المرغوب، سلطوياً، لا يقبل بأنيس صايغ ولا يقبل أنيس به. تستدعي الملاحظة الأخيرة سيرة ثالثة.

نقضت سيرة مركز الأبحاث، كما أرادها صايغ، سيرة "مثقفين سلطويين" معظمهم من أشباه المثقفين والمحبّرين والكتبة، الذين موهبتهم الأساسية، كما يقول صايغ، هي: الإذعان السعيد المدفوع الأجر، أو الاستزلام المنسوج من الجهل وفساد الروح. والأمثلة المضروبة في الكتاب كثيرة، بدءاً بالباحث الكاذب الذي ينتهي جاسوساً، أو يبدأ كما انتهى، مروراً بالمستزلم الرخيص الذي يغدو ثرياً، دون أن يفقد رخصه، وصولاً إلى انتهازي عريق يحاول الجمع بين الإدارة الثقافية وصيد النساء والعبث بأموال اليتامى والأرامل، محققاً نجاحاً في ميادين كثيرة، باستثناء ميدان الثقافة الوطنية التي ظنّها، بحكم العادة، "امرأة رخيصة أخرى"، استلفها من غيرها ويسلّفها إلى غيره.٠ كتب أنيس صايغ كثيراً من الصفحات بلغة واضحة حارقة جارحة، وهو الذي أراد حقيقة فلسطين، وأراد غيره استثمارها.٠ ولهذا، رأى في تراجع مركز الأبحاث، بعد أن غادره، أمراً مؤسياً، ورأى في سرقة الإسرائيليين لمكتبة مركز الأبحاث، التي جاهد لتصبح ذاكرة وطنية نموذجية، سرقة لقسط ثمين من حياته.٠ يرفع صوته غاضباً وهو يشير إلى تبدّد وتلف وضياع ما تبقّى من هذه المكتبة المجيدة: "وهكذا ضاعت، بالإهمال واللامبالاة، أهم المكتبات السياسية الفلسطينية، ومن يضيّعْ بلداً لا يصعب عليه إضاعة مكتبة٠(ص: ٢٢١).

مثقف عاش معرفته منتجاً ومسؤولاً نقدياً وإدارياً معادياً لعادات الارتجال والكسل.٠ كان في صفاته، الموحّدة بين النظر والعمل، مثقفاً حديثاً، يدرج الثقافة النقدية في مشروع وطني، محاذراً البلاغة ولعبة الوجه والقناع، ومحاذراً أكثر التكسّب الصغير من قضية كبيرة.٠ وهذه الصفات، التي تخبر عن مأساة مثقف سياسي في وسط لا سياسة فيه ولا ثقافة، هي التي تعطفه على مثقفين نقديين فلسطينيين، بدءاً بخليل السكاكيني، وصولاً إلى إدوارد سعيد.٠ أعطى صايغ، في مساره هذا، مادة خصبة لقراءة ذلك الموضوع الجديد–القديم: علاقة المثقف بالسياسي، الذي ينفتح على سؤال أكثر خطراً: لماذا تنتهي الثورات الشعبية المدافعة عن الصحيح إلى الخيبة والانهيار؟ ولماذا ما يبدو، موضوعياً، منتصراً، يحصد الهزيمة؟

أين تتجلى السيرة الذاتية؟ وأين يتجلّى التاريخ في السيرة الذاتية؟ تتجلى السيرة في حقب العمر المتوالية التي احتقبت أهدافاً ووظائف ومنجزات وحسرة على الوطن لا تنتهي. ·ويتجلّى التاريخ في مآل حركة وطنية واسعة، تقول بالتحرّر وتمارس الاستبداد، وتطمح إلى النصر وتؤسّس للهزيمة، وتفترض فعلاً وغاية، ولا تعبأ بالطريق الذي يصل بين الفعل والغاية.

جاء في السيرة: "وقصة مصير مكتبة المركز مأساوية إلى أبعد حدّ. نقلت بعض المحتويات التي لم يستولِ العدو عليها إلى قبرص ١٩٨٣، ثم إلى عدّة عواصم عربية.· ولا أعلم ماذا حلَ بها وإلى أين انتهت عصا الترحال؟ أما العشرة آلاف كتاب فقد تفاوضت القيادة الفلسطينية عبر الصليب الأحمر الدولي مع العدو لاستردادها، ونجح الصليب الأحمر في نقلها من فلسطين المحتلة إلى جنيف، ثم إلى الجزائر، وذلك العام ١٩٨٨. ·وقيل إنّها ضاعت هناك واختفت كليّاً، وقيل أيضاً أنّ بعض المحتويات وصل بحراً إلى ميناء أسدود "الإسرائيلي".· ومع أنّ سلطات الميناء أبلغت الهيئات المعنية في المنظمة بالأمر، وطلبت منها العمل على أخذها، إلاّ أنّ تلك الجهات لم تبدِ اهتماماً إلاّ بعد سنة، حينما أنذرت سلطات الميناء المنظمة بأنّها ستتلف محتويات الصناديق إذا لم تتسلّمها.· وهنا أيضاً لا أعلم ماذا حصل" (ص: ٢٢١).

تموت مكتبة مركز الأبحاث الفلسطيني، ويبقى، لحسن الحظ، مكتبة فلسطينية اسمها: أنيس صايغ في مذكرات المثقفين الفلسطينيين الكبار، في الماضي والحاضر، ما يبرهن عن جمالية الشعب الفلسطيني المتوالدة، وما يشهد على بؤس قياداته السياسية، المتوالدة أيضاً.

د. أنيس صايغ: بناء المؤسسات وإنتاج المعرفة

فيحاء قاسم عبد الهادي

د. أنيس صايغ: بناء المؤسسات وإنتاج المعرفة

فيحاء قاسم عبد الهادي*

حين نسف الإرهابيون مبنى مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، في بيروت، في الرابع من شباط العام ١٩٨٣، بعد سلسلة من الاعتداءات الإرهابية على المركز، منذ تأسيسه العام ١٩٦٦؛ كانوا يدركون خطر ما يمثله المركز في الواقع الثقافي الفلسطيني.

وحين حطموا أثاث المركز ومحتوياته، ولطخوا جدرانه بكلمات بذيئة؛ كانوا يعبرون عن حقدهم على الثقافة الفلسطينية، وعلى المعرفة الإنسانية في آن.

أما حين سلب رجال مخابراتهم أكثر من نصف محتويات المكتبة (عشرين ألف كتاب)، ووثائق المركز الثمينة، قبل نسفه بستة أشهر، وحين احتلوا مركز الأبحاث، خلال اجتياحهم بيروت صيف ١٩٨٢؛ فإنهم كانوا يعترفون بخطر الثقافة في المعركة بين المحتلين وأصحاب الحق. "فالمعركة الثقافية مع العدو هي من صميم الحرب، وهي من أمضى الأسلحة لأنها هي التي ترشد الأسلحة الأخرى، وتعزز قوتها".

في رحلة عمره التي امتدَّت ثلاثة أرباع القرن؛ ومن خلال عالميْ القلم والوطن؛ قدَّم د. أنيس صايغ مثالاً على قدرة المؤرِّخ والمفكِّر، على التفاعل مع شعبه ووطنه الكبير. كما أثبت بشكل ملموس، أهمية بناء المؤسسات الثقافية، في حياة الفلسطينيين والعرب.

---

* كاتبة وباحثة مقيمة في رام الله.

استلم د. أنيس صايغ إدارة مركز الأبحاث يوم ١٩٦٦/٨/٧، وإلى أن غادره بعد عشر سنوات؛ استأثر المركز بأنيس صايغ استئثاراً كاملاً، وذاب المركز فيه مثلما ذاب هو فيه، على حد تعبيره. "تحوَّل الارتباط إلى عملية توحيد. أصبح المركز في عيون الناس هو أنيس صايغ، وأصبحت عندهم أنا مركز الأبحاث، وفقد كل منا هويته الخاصة واستقلاله الذاتي".

يتحدَّث عن وضع المركز حين استلم إدارته العام ١٩٦٦؛ "كان في شقة متوسطة الحجم، في شارع السادات في بيروت، يضم مكتبة في ثلاث أو أربع خزائن، صدر عنه خمسة كتب، وحين غادر المركز؛ كان قد انتقل إلى بناية مجاورة، في شارع كولمباني شغل ستاً من طبقاتها الواسعة، وكانت المكتبة بكتبها ووثائقها، وملفاتها، تحتل طبقتين كاملتين لاحتواء عشرين ألف مجلد، وألف ملف، وعشرات الخزائن من الوثائق. وكانت المنشورات قد تجاوزت الثلاثمائة، وأضيف إليها مجلة شهرية ونشرة رصد تصدر مرتين في اليوم. أما الباحثون، فقد ارتفع عددهم من ثلاثة إلى أربعين، وارتفع عدد الإداريين والمحررين، من خمسة إلى عشرين، وارتفع جهاز التوثيق من أربعة إلى عشرة. كانت هذه مجرد مظاهر وانعكاسات لنمو المركز في مشاريعه وفي خدماته للمواطن، وفي نقل رسالته إلى العالم كله. وكان هذا هو الذي نصَّب مركز الأبحاث على عرش الثقافة الفلسطينية المؤسسية في السبعينيات من القرن العشرين".

هذه العلاقة الحميمة بين الفرد والمؤسسة، تدعونا إلى التساؤل والتدقيق، حول ماهية علاقة الفرد بالمؤسسة؟ وماهية المؤشرات الدالة على أن د. أنيس قد عمل على إرساء دعائم مؤسسة شفافة؟

يعزو د. أنيس صايغ نجاح المركز في أداء رسالته إلى أربعة عوامل: أولها إلى دور رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيري، "الذي رعى المركز ووفر له الحماية وهو في دور التأسيس، وبقي حتى وفاته صديقاً مخلصاً للمركز". والعامل الثاني لفايز صايغ، الذي لم يؤسس المركز العام ١٩٦٥ فحسب؛ بل "أرسى قواعد العمل وفروعه وأسلوبه". والعامل الثالث هو "الاحتضان الرائع الذي حظي به المركز، من جمهرة المثقفين العرب، الحريصين على أهمية الفكر والوثيقة والكلمة والرأي الحر، في التعامل مع قضيتنا الكبرى، من كل قطاعات الأمة العربية وأرجاء وطنها، واتجاهاتها، ومذاهبها السياسية المختلفة، من المحيط حتى الخليج".

أما الرابع، فهو انضمام الباحث الكفء، إبراهيم العابد، إلى أسرة المركز في العام ١٩٦٧، ثم تعيينه نائباً للمدير العام".

تتبيَّن مؤشرات بناء المؤسسة بشكل واضح، من خلال عمل مركز الأبحاث، فهو مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، جهاز من أجهزة المنظمة، يلتزم بالنظم الإدارية لمنظمة التحرير. ينظر في طلبات التوظيف على أساس الكفاءة، وليس على أساس الانتماء التنظيمي. يوقِّع عقوداً رسمية مع الكتاب، ويدفع لهم بالمقابل مكافآت رمزية. يعتمد سلماً للرواتب.

يتبيَّن الإيمان بالمؤسسة لدى أنيس صايغ، حين يتحدَّث عن بداية التزامه بالعمل مديراً للمركز. سأله أحمد الشقيري عن الراتب الذي يطلبه، فأجاب: أنت تحدد الراتب حسب سلَّم الرواتب في المنظمة".

ويعتبر تفرغه التام للعمل في المركز، أحد عوامل نجاح المركز، بالإضافة إلى أنه أحد دعائم بناء المؤسسة. يتضح أن هذا ما قصده بالتحديد، حين تحدَّث عن الاستئثار بالمركز. "آليت على نفسي منذ استلمت إدارة مركز الأبحاث ١٩٦٦ حتى نهاية ارتباطي بالموسوعة العام ١٩٩٣، أن لا أقوم بعمل آخر بأجر دائم أو مؤقت، خلال ارتباطي بالمشروع الأساسي، الذي أنا مؤتمن عليه، بما فيه إلقاء المحاضرات والمشاركة بالندوات وكتابة المقالات للصحف. كنت أعتذر عن عدم تلبية الدعوات التي توجه إليّ خلال تلك الارتباطات الرسمية، إلاّ فيما ندر، وفيما هو لمصلحة المشروع الذي أتولاه. فأنا لا أؤمن بالمهنة المتعددة الألوان. أؤمن بالتفرغ الكامل. ولا أظن أن مشروعاً ناجحاً واحداً قام على أكتاف رجل تعددت ولاءاته وانتماءاته ومشاغله".

وأعتقد أن هناك صفة مهمة تحلى بها د. أنيس، ساعدت على بناء مؤسسة فاعلة، وهي صفة النظام والانضباط. وهي صفات نجد أثرها البعيد في تربيته البيتية، وفي تربيته الحزبية.

> "يخطئ من يظن أن المناضل والمبدع إنسانان بعيدان عن الروتينية، ويجب أن يبقيا خارج نطاق الانضباط، حتى ينطلقا بحرية في أداء رسالتهما النضالية أو الإبداعية".

آمن أنيس صايغ بأهمية إنتاج المعرفة. هذا ما نلمسه حين نتتبع إنتاجه، خلال إدارته لمركز الأبحاث، وأثناء توليه الموسوعة الفلسطينية، ثم بعد أن استقال من المركز ومن مجلس إدارة الموسوعة.

أثناء إدارته للمركز؛ نجد إنتاجاً غزيراً للكتب والسلاسل، وإصداراً لمجلة، وإنتاجاً مميزاً للكتّاب.

"كتب المركز هي الكتلة الأكبر والأوسع انتشاراً بين نتاجات المركز، وقد صدرت بالمئات في مدى عشر سنوات، بعضها في أكثر من لغة (الإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والدنمركية، والهولندية، والألمانية، والإيطالية، والبرتغالية، ولغة الاسبرانتو، ولغة المكفوفين)، وبعضها في عشرات الآلاف من النسخ. حملت كلها اسم المركز ورسالته إلى كل مكان. عالجت المنشورات الموضوعات الفلسطينية، بتفرع الشأن الفلسطيني، وامتداداته وذيوله وارتباطاته، عربياً وإسلامياً يهودياً وصهيونياً و"إسرائيليا" ودولياً".

تركز الجانب الأكبر من الكتب في قضيتين: تعريف المواطن الفلسطيني والعربي بالقضية الفلسطينية، والثاني التفريق بين اليهودية والصهيونية، وتحديد أهداف الثورة الفلسطينية.

من الكتب: **فلسطين والقومية العربية، وميزان القوى العسكرية بين الدول العربية وإسرائيل، بلدانية فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٧، والمستعمرات الإسرائيلية الجديدة بعد عدوان ١٩٦٧**، التي كانت أول دراسة توثق لعمليات الاستيطان والتهويد في المناطق التي احتلت العام ١٩٦٧ في فلسطين وسيناء والجولان، **والجهل بالقضية الفلسطينية**، وكتابان تمهيديان لمجلة **شؤون فلسطينية فلسطينيات**.

السلاسل: سلسلة دراسات خاصة بعد العام ١٩٦٩.

"كنا نطبعها على الآلة الكاتبة ونسحبها على آلة الستانسل، ونوزعها توزيعاً محدوداً، وضيقاً جداً، ولكل نسخة رقم نحتفظ به، حتى نضمن عدم تسرب المعلومات إلى العدو. بلغت منشورات هذه السلسلة الخمسين تقريباً". حرر د. أنيس أربعة من هذه الكتب: **ملاحظات حول الإعلام العربي للقضية الفلسطينية، وخرائط**

فلسطينية وطرق المواصلات في فلسطين (كان المقصود منها وبخاصة الثانية، أن يتزود بها الفدائيون كدليل لتحركهم داخل الأرض المحتلة)، **والعمليات الفدائية الفلسطينية خارج فلسطين**.

أصدر المركز مجلة **شؤون فلسطينية** العام ١٩٧١، وقد ترأس د. أنيس رئاسة تحريرها حتى العام ١٩٧٦. وعلى الرغم من تركيز جل اهتمامه في المجلة؛ فإنه استمر بالإشراف على **اليوميات الفلسطينية** (كتاب توثيقي نصف سنوي يوثق لتطورات القضية الفلسطينية وأحداثها، فلسطينياً، و"إسرائيلياً"، وعربياً ودولياً)، وتحريرها منذ ١٩٦٦، إلى ١٩٧٦.

ويتجلى إنتاج المعرفة لدى د. أنيس، من خلال مركز الأبحاث، في "إنتاج مجموعة جديدة من الباحثين الفلسطينيين والعرب، متخصصين بالقضية وفروعها ونواحيها المتعددة، القادرين على سد الفراغ الهائل في مكتبة العلم الفلسطيني. لقد آمن المركز بوجود شيء اسمه العلم الفلسطيني، والدراسة الفلسطينية. وحاول أن يرفد هذا المجال بالعشرات من الوافدين الجدد المتسلحين بمعرفة واطلاع واستيعاب كافٍ لتأهيلهم لسد الفراغ ومواجهة العلم الصهيوني و«الإسرائيلي»".

وحين نقرأ أسماء بعض الكتاب الذين أنتجهم المركز؛ نجد أسماء كتاب طليعيين ومبدعين وعلماء في مجالات المعرفة المتنوعة. منهم: محمود درويش، وإلياس خوري، وحكم دروزة، وأحمد خليفة، وإلياس سحاب، وخيرية قاسمية، وداود تلحمي، وعلي الخليلي، وفيصل دراج، ونبيل شعث، وأسعد عبد الرحمن، وصادق جلال العظم، وسلمى حداد، وصبري جريس، ونزيه قورة، وهاني الهندي، ونجلاء بشور، وهدى عسيران، وهيلدا شعبان صايغ، والهيثم الأيوبي.

قال أحد الكتاب العرب: "إن المركز يفرِّخ كتاباً وباحثين كما تفرِّخ الدجاجة صيصانها".

وقد بدأ المركز أواسط السبعينيات، في العمل على مشروعين، يكملان مشاريعه الأخرى: تدريس اللغة العبرية لأكبر عدد من العاملين في المركز من الباحثين والتوثيقيين والمراجعين والإداريين. وهنا يذكر الدكتور أنيس دور عبد الحفيظ محارب، الذي "أدى مهمته خير أداء، وتتلمذ عليه كثيرون، أصبح بمقدورهم قراءة الصحف والكتب باللغة العبرية الحديثة وفهمها".

ثم مشروع السينما الفلسطينية، حيث قدَّم المركز لجماعة السينما الفلسطينية الرعاية والأرشيف الأساسي للسينما الفلسطينية والعربية والأجنبية.

أما مشروع الموسوعة، فقد بدأ بحلم د. أنيس لإصدار موسوعة فلسطينية، منذ العام ١٩٦٦، ومع بداية التزام د. أنيس بإدارة مركز الأبحاث؛ إلاّ أن القسم الأول للموسوعة، بأجزائه الأربعة، لم يصدر سوى منتصف الثمانينيات. هذا يدل على الدأب والمتابعة والإصرار والعمل، لتحويل الحلم إلى واقع.

> "إني أزعم، بالقليل من التواضع، ما يوافقني عليه الكثيرون من العليمين بتاريخ مشروعي المركز والموسوعة، ونتاجهما الغزير والطويل، على مدى ربع قرن، أني تركت فيهما بصمات يلمسها المرء في كل منشور أو بحث ظهر بين كتب المركز ومقالات مجلته، وكذلك بين مواد مجلدات الموسوعة العشرة".

> "عاش المركز معي عشر سنوات، والمجلة ست سنوات، والموسوعة ست عشرة سنة".

بعد استقالة د. أنيس من مركز الأبحاث العام ١٩٧٧؛ استمر في جهده الدؤوب لبناء مؤسسات بحثية، حيث حرص على تلبية الدعوات إلى عدد من المراكز البحثية والمؤسسات الناشئة، للتأسيس أو لتطوير العمل. وأصبح مستشاراً متفرغاً للعديد من هذه المراكز. كان أهمها: مركز الدراسات الفلسطينية في بغداد، وهو ملحق بجامعة بغداد، ومركز الدراسات الإستراتيجية في جريدة الأهرام في القاهرة، ومركز الدراسات العبرية في عمان، ومكتب الدراسات الخاص بالبعثات الدبلوماسية في أبو ظبي، ومركز المعلومات في جريدة القبس في الكويت، ومعهد الدراسات والبحوث العربية في القاهرة.

كانت لدى د. أنيس عقلية المؤسسة، التي تتناقض مع عقلية الهيمنة والاحتكار. هذا ما جعله يحرص على التأسيس، ويحرص في الوقت ذاته على عدم البقاء في المكان نفسه فترة طويلة: "أنا أهوى التأسيس، بوضع القواعد والأرضية الصالحة، وأترك للآخرين الانطلاق بالمشروع، وربما كانوا أكثر كفاءة أو ملاءمة. فأنا أؤمن بضرورة فتح الباب دائماً أمام

أصحاب الكفاءات وتشجيع الناشئين الواعدين، في الكتابة والتحرير، وعدم الاستئثار بالمناصب، حتى لا تغلق الأبواب أمامهم".

"لماذا يكتب عن إنسان مثلي"؟

إذا كانت تجارب الإنسان هي ملك للتاريخ، وإذا كان التاريخ هو ملك لصانعي التاريخ؛ تتبدَّى أهمية الكتابة عنك يا شيخ المؤرخين. أنتَ من نذرت قلمك وحياتك للدفاع عن قضية شعبك الفلسطيني والعربي، مكرساً قيمة التوثيق والبحث العلمي، ومؤمناً بسلاح الثقافة التنويرية، في وجه الاستعمار والاحتلال والتخلف الاجتماعي. وحين أصدرت غولدا مائير قرارها بتصفيتك، بواسطة طرد مفخخ، في شهر حزيران من العام ١٩٧٢، مع عدد من مفكري وأعلام فلسطين؛ كانت تدرك تمام الإدراك خطورة الفكر القومي العربي، وفاعليته، حين يتسلح بالبحث العلمي، في مواجهة الفكر العنصري الصهيوني.

من يستحق أن يُكتب عنه أكثر من أمثالك؟

منشورات مواطن

سلسلة دراسات وأبحاث

العَتَبَة في فتح الإبستيم
إسماعيل ناشف

العمالة الفلسطينية في إسرائيل ومشروع الدولة الفلسطينية
ليلى فرسخ

مدخل في تاريخ الديموقراطية في اوروبا
عبد الرحمن عبد الغني

النســـاء والقضـــاة والقانـــون: دراسة أنثروبولوجية للمحكمة الشرعية في غزة
نهضة يونس شحادة

نساء على تقاطع طرق: الحركة النسوية الفلسطينية بين الوطنية والعلمانية والهوية الإسلامية
إصلاح جاد

في المسألة العربية: مقدمة لبيان ديمقراطي عربي
عزمي بشارة

تمكين الأجيال الفلسطينية: التعليم والتعلم تحت ظروف قاهرة
تفيدة جرباوي وخليل نخلة

«وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ»: الإسلاميون والديمقراطية
رجا بهلول

فلسطين الى أين؟ تلاشي حل الدولتين (باللغة الإنجليزية)
تحرير جميل هلال

الطبقة الوسطى الفلسطينية، بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة
جميل هلال

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو: دراسة تحليلية نقدية (طبعة ثانية – مزيدة)
جميل هــلال

نظريات الانتقال إلى الديمقراطية: إعادة نظر في براديغم التحول
جوني عاصي

من التحرير إلى الدولة: تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٨–١٩٨٨
هلغى باومغرتن

تقاسيم زمّار الحيّ – مقالات
فيصل حوراني

بروز النخبة الفلسطينية المعولمة (باللغة الانجليزية والعربية)
ساري حنفي وليندا طبر

الحداثة المتقهقرة: طه حسين وأدونيس
فيصل دراج

صفد في عهد الانتداب البريطاني ١٩١٧ – ١٩٤٨
مصطفى العباسي
بالتعاون مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية والمقدسية

الجبل ضد البحر
سليم تماري

من يهودية الدولة حتى شارون: دراسة في تناقض الديمقراطية الإسرائيلية
عزمي بشارة

تشكل الدولة في فلسطين (باللغة الانجليزية)
تحرير: مشتاق خان، جورج جقمان، انج أمندسن

مستقبل النظام السياسي الفلسطيني والآفاق السياسية الممكنة
تحرير: وسام رفيدي
وقائع مؤتمر مؤسسة مواطن، ومعهد ابراهيم ابو لغد ٢٠٠٤

التربية الديمقراطية، تعلم وتعليم الديمقراطية من خلال الحالات
ماهر الحشوة

حركة معلمي المدارس الحكومية في الضفة الغربية ٢٠٠٠–١٩٦٧
عمر عساف

المجتمع الفلسطيني في مواجهة الاحتلال: سوسيولوجيا التكيف المقاوم خلال انتفاضة الاقصى
مجدي المالكي واخرون

اسطورة التنمية في فلسطين: الدعم السياسي والمراوغة المستديمة
خليل نخلة

جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨
فيصل حوراني

القطاع العام ضمن الاقتصاد الفلسطيني
نضال صبري

هنا وهناك نحو تحليل للعلاقة بين الشتات الفلسطيني والمركز
ساري حنفي

تكوين النخبة الفلسطينية
جميل هلال

الحركة الطلابية الفلسطينية: الممارسة والفاعلية
عماد غياظة

دولة الدين، دولة الدنيا: حول العلاقة بين الديمقراطية والعلمانية
رجا بهلول

النساء الفلسطينيات والانتخابات، دراسة تحليلية
نادر عزت سعيد

المرأة وأسس الديمقراطية
رجا بهلول

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو: دراسة تحليلية نقدية
جميل هلال

ما بعد اوسلو: حقائق جديدة (باللغة الانجليزية)
تحرير: جورج جقمان

ما بعد الازمة: التغييرات البنيوية في الحياة السياسية الفلسطينية، وآفاق العمل
وقائع مؤتمر مواطن ٩٨

التحرر، التحول الديمقراطي وبناء الدولة في العالم الثالث
وقائع مؤتمر مواطن ٩٧

اشكالية تعثر التحول الديمقراطي في الوطن العربي
وقائع مؤتمر مواطن ٩٦

العطب والدلالة في الثقافة والانسداد الديمقراطي
محمد حافظ يعقوب

رجال الاعمال الفلسطينيون في الشتات والكيان الفلسطيني
ساري حنفي

مساهمة في نقد المجتمع المدني
عزمي بشارة

حول الخيار الديمقراطي
دراسات نقدية

سلسلة رسائل الماجستير

الانتخابات والمعارضة في المغرب بين التحول الديمقراطي واستمرارية النظام السلطوي(١٩٩٧-٢٠٠٧)
نشأت عبد الفتاح

عن النساء والمقاومة: الرواية الاستعمارية
أميرة محمد سِلْمي

التغيير السياسي من منظور حركات الإسلام السياسي: «حماس» نموذجا
بلال الشوبكي

المجتمع المدني «بين الوصفي والمعياري»: تفكيك إشكالية المفهوم وفوضى المعاني
ناديا أبو زاهر

النقد والثورة: دراسة في النقد الاجتماعي عند علي شريعتي
خالد عودة الله

حركة «فتح» والسلطة الفلسطينية: تداعيات أوسلو والانتفاضة الثانية
سامر إرشيد

سلسلة مداخلات واوراق نقدية

أن تكون عربياً في أيامنا
عزمي بشارة

المنهاج الفلسطيني اشكاليات الهوية والمواطنة
عبد الرحيم الشيخ (محرراً)

الحريات المتساوية حقوق المرأة بين الديمقراطية – الليبرالية وكتب التربية الإسلامية
وليد سالم وإيمان الرطروط

اليسار والخيار الاشتراكي قراءة في تجارب الماضي، واحتمالات الحاضر
داوود تلحمي

تهافت أحكام العلم في إحكام الإيمان
عزمي بشارة

الديمقراطية والإنتخابات والحالة الفلسطينية
وليم نصار

إطار عام لعقيدة أمن قومي فلسطيني
حسين آغا وأحمد سامح الخالدي

نحو أممية جديدة: قراءة في العولمة / مناهضة العولمة والتحرر الفلسطيني
علاء محمود العزة وتوفيق شارل حداد

التنظيمات والأحزاب السياسية الفلسطينية
جميل هلال

الأحزاب السياسية الفلسطينية والديمقراطية الداخلية
طالب عوض وسميح شبيب

الراهب الكوري .. سَفَر وأشياء أخرى
زكريا محمد

واقع التعليم الجامعي الفلسطيني: رؤية نقدية
ناجح شاهين

طروحات عن النهضة المعاقة
عزمي بشارة

ديك المنارة
زكريا محمد

لئلا يفقد المعنى (مقالات من سنة الانتفاضة الاولى)
عزمي بشارة

في قضايا الثقافة الفلسطينية
زكريا محمد

ما بعد الاجتياح: في قضايا الاستراتيجية الوطنية الفلسطينية
عزمي بشارة

المسألة الوطنية الديمقراطية في فلسطين
وليد سالم

الحركة الطلابية الفلسطينية ومهمات المرحلة تجارب وآراء
تحرير مجدي المالكي

الحركة النسائية الفلسطينية اشكاليات التحول الديمقراطي واستراتيجيات مستقبلية
وقائع مؤتمر مواطن ٩٩

اليسار الفلسطيني: هزيمة الديمقراطية في فلسطين
علي جرادات

الخطاب السياسي المبتور ودراسات أخرى
عزمي بشارة

أزمة الحزب السياسي الفلسطيني
وقائع مؤتمر مواطن ٩٥

المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في فلسطين
زياد ابو عمرو واخرون

الديمقراطية الفلسطينية
موسى البديري واخرون

المؤسسات الوطنية، الانتخابات والسلطة
اسامة حلبي واخرون

الصحافة الفلسطينية بين الحاضر والمستقبل
ربى الحصري واخرون

الدستور الذي نريد
وليم نصـار

سلسلة اوراق بحثية

دراسات اعلامية ٢
تحرير: سميح شبيب

دراسات اعلامية
تحرير: سميح شبيب

الثقافة السياسية الفلسطينية
باسم الزبيدي

العيش بكرامة في ظل الاقتصاد العالمي
ملتون فيسك

الصحافة الفلسطينية المقروءة في الشتات ١٩٦٥-١٩٩٤
سميح شبيب

التحول المدني وبذور الانتماء للدولة في المجتمع العربي والاسلامي
خليل عثامنة

المساواة في التعليم اللامنهجي للطلبة والطالبات في فلسطين
خولة الشخشير

التجربة الديمقراطية للحركة الفلسطينية الاسيرة
خالد الهندي

التحولات الديمقراطية في الاردن
طالب عوض

النظام السياسي والتحول الديمقراطي في فلسطين
محمد خالد الازعر

البنية القانونية والتحول الديمقراطي في فلسطين
علي الجرباوي

سلسلة التجربة الفلسطينية

أنيس صايغ والمؤسسة الفلسطينية السياسات، الممارسات، الإنتاج
سميح شبيب (محرراً)

انتفاضة الأقصى: حقول الموت
محمد دراغمة

أحلام بالحرية (الطبعة الثانية)
عائشة عودة

الواقع التنظيمي للحركة الفلسطينية الأسيرة دراسة مقارنة ١٩٨٨-٢٠٠٤
اياد الرياحي

مغدوشة: قصة الحرب على المخيمات في لبنان
ممدوح نوفل

يوميات المقاومة في مخيم جنين
وليد دقة

أحلام بالحرية
عائشة عودة

الجري الى الهزيمة
فيصل حوراني

أوراق شاهد حرب
زهير الجزائري

البحث عن الدولة
ممدوح نوفل

سلسلة مبادئ الديمقراطية

ما هي المواطنة؟
فصل السلطات
سيادة القانون
مبدأ الانتخابات وتطبيقاته
حرية التعبير
عملية التشريع
المحاسبة والمساءلة
الحريات المدنية
التعددية والتسامح
الثقافة السياسية
العمل النقابي
الاعلام والديمقراطية

سلسلة ركائز الديمقراطية

التربية والديمقراطية
رجا بهلول

حالات الطوارئ وضمانات حقوق الانسان
رزق شقير

الدولة والديمقراطية
جميل هلال

الديمقراطية وحقوق المرأة بين النظرية والتطبيق
منار شوربجي

سيادة القانون
اسامة حلبي

حقوق الانسان السياسية والممارسة الديمقراطية
فاتح عزام

الديمقراطية والعدالة الاجتماعية
حليم بركات

سلسلة تقارير دورية

تطوير قواعد عمل المجلس التشريعي نحو قانون للسلطة التشريعية
إعداد : جهاد حرب اشراف: عزمي الشعيبي

نحو نظام انتخابي لدولة فلسطين الديمقراطية
جميل هلال،عزمي الشعيبي وآخرون

الاعمال التشريعية الصادرة عن رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية
سناء عبيدات

دراسة تحليلية حول أثر النظام الانتخابي على تركيبة المجلس التشريعي القادم
احمد مجدلاني، طالب عوض